أوقـــــات عصـــيبـة

تشـــارلـــز ديكـــنز

الناشر
دار الآفاق العربية

ديكنز، تشالز
أوقـــات عصيـــــبة
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2018
161 ص ، 20 سم

1- الروايات العالمية .

أ. العنوان 823

تدمك: 5 – 308 – 344 – 977 – 978
رقم الإيداع : 3734 / 2018
الطبعة الأولى
1439 هـ / 2018 م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآفاق العربية
نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 00202- 22617339 تليفاكس : 00202-22610164

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@Gmail.com

تعريف بالمؤلف

هو **تشارلز جون هوفام ديكنز** ولد فى فبراير عام 1812.

بأجماع النقاد يعد اعظم الروائيين الأنجليز في العصر الفيكتوري، ولاتزال الكثير من أعماله تحتفظ بشعبية كبيرة حتي اليوم.

يتميز أسلوبه بالمداعبة البارعة والسخرية اللاذعة، برع في تصوير حياة الفقراء وتحدي المسئولين في عصره القائمين علي المدارس والسجون ودور الرعاية والمياتم.

ومن أشهر أعماله التي ماتزال باقية حتي اليوم "أوليفر تويست"، و"قصة مدينتين"، و"ديفيد كوبرفيلد" و"أوقات عصيبة".

وبسبب شعبية رواياته وقصصه القصيرة فإن طباعه أعماله لم تتوقف أبداً وظهرت في العديد من الدوريات والمحلات بصيغة مسلسلة أولاً وكان ذلك هو الشكل المفضل للأدب وقتها.

ولد **ديكنز** لأسرة كبيرة العدد وفقيرة كان له ثمانية أشقاء، وعاش طفوله يائسة لأن والده كان يعمل في وظيفة بسيطة وأضطر أن يستدين أموالاً ولم يتمكن من سدادها فدخل السجن ولهذا أضطر **ديكنز** لأن يترك دراسته وهو طفل والتحق بأعمال شاقة من أجل أن يساعد في الأنفاق علي عائلته، وقد كتب **ديكنز** عن تجاربه وأنطباعاته المريرة التي مر بها أثناء طفولته وصورها في قصصه وأعماله.

نشر **ديكنز** مايزيد عن أثنتي عشر رواية مهمة وعدد من القصص القصيرة وبعض المسرحيات، وفي سن الرابعة والعشرين وبالتحديد في عام 1836م أصدر **ديكنز** أولي روايته الأدبية التي كانت بعنوان "مذكرات سيكويك" والتي لاقت نجاحا ساحقاً.

ومن أشهر رواياته التي أشتهرت عالميا وترجمت لعدة لغات عالمية ونشرت عام 1861 رواية "الأمال العظيمة" وأصبحت محط أنظار العاملين في السنيما ليقتبصوا منها أكثر من 250 عمل مسرحي وتلفزيزني.

توفي **تشالز ديكنز** عن عمر يناهز 85 عاماً بعد أن ترك خلفه كنز كبير من الأعمال الأدبية التي أثرت الحياة الثقافية.

وتعد رواية "أوقات عصيبة" من أهم روايات الأديب البريطاني، وهي عاشر رواياته ونشرت لأول مرة عام 1854.

وتصف بلغة راقية وشديدة السخرية المجتمع الأنجليزي، مظهراً فيها الضغوط الأجتماعية والإقتصادية في ذلك الوقت.

وتدور أحداثها في مدينة صناعية خيالية في شمال أنجلترا تدعب "كوكتاون".

- 1 -

في مدينة كوكتاون بانجلترا، وفي حجرة الدرس وهي حجرة مربعة الشكل قبيحة المنظر، جلس عشرون من التلاميذ والتلميذات - صامتين – يستمعون للسيد "جرادجريند" وهو يحدث معلمهم قائلاً:

- أريد حقائق مادية، علم هؤلاء الأولاد والبنات الحقائق العلمية فقط يا سيدي. لقد ربيت أولادي على الحقائق وأريدك أن تربي هؤلاء الأطفال على الحقائق، فلا شيء أنفع لهم من الحقائق..
- هكذا كان يتحدث السيد "جرادجريند"، رجل الأعمال المعروف ومالك هذه المدرسة الصغيرة بينما وقف إلى جانبه شاب أنيق مهذب، لم يكن – حتى هذه اللحظة – قد شارك في الحديث.
- وكان السيد جرادجريند قد بنى تلك المدرسة وجعلها أشبه ما تكون بتكوينه الجسماني. مربعة الشكل!! فقد كان هو مربع الجسم له رأس أصلع مربع الشكل وأصابع غليظة مربعة الشكل أيضاً أما عيناه فكانتا أشبه ببئرين مربعي الشكل مظلمين حفرا في مقدمة رأسه الأصلع، الذي فقد معظم شعره وبدا هذا الرأس الأصفر وكأنه على وشك الانفجار، ربما من شدة ازدحامه بالحقائق!!
- والسيد "توماس جرادجريند" – وهذا اسمه كاملاً – لا يعترف بشيء في الحياة لا يندرج تحت قائمة الحقائق المادية، فأي شيء لا يخضع للإحصاء العدوى أو للقياس الحجمي أو الكمي ليس له وجود في رأي السيد "جرادجريند"، وبالتالي.. هو يرفض أن يفسح له مكاناً في رأسه.

وبينما ظل الأولاد والبنات على صمتهم، استأنف السيد "جرادجريند" حديثه:

- إننا لا نحتاج في حياتنا هذه إلا إلى الحقائق.. البنت رقم 20 قفي؟ إنني لا أعرف هذه البنت.. من تكون؟

كانت البنت رقم (20) بنتا جميلة لها عينان سوداوان جميلتان وشعر أسود فاحم، وعندما أشار إليها السيد "جرادجريند" وأمرها بالوقوف، وقفت وقد اكتسى وجهها بحمرة شديدة وانحنت تحية واحتراماً وأجابت على سؤال السيد "جرادجريند" **قائلة**:

- اسمي "سيسي جوب" يا سيدي!

فقال:

- إن "سيسي" هذا ليس اسماً. لابد أن أسمك هو سيسيليا.

فقالت البنت وهي لا تزال على انحناءها محمرة الوجه:

- إن أبي يناديني "سيسي" يا سيدي.

فقال لها السيد "جرادجريند" في حزم قاطع:

- إذن فهو مخطئ.. قولي له أنه يجب عليه ألا يناديكي بهذا الاسم ثانية، فاسمك هو "سيسيليا" .. ما هي صنعة أبيك؟
- أنه يعمل مدرباً للخيول في السيرك يا سيدي.
- في السيرك؟! آه يا عزيزتي! إننا لا نحب أن نسمع شيئاً عن هذا هنا. بالتأكيد هو يرعى الخيل عندما تمرض، أليس كذلك؟
- بلى يا سيدي أنه يفعل هذا أيضاً.
- إذن فهو طبيب، طبيب بيطري والآن يا "سيسيليا جوب" قولي لي ما هو الحصان؟

فازداد احمرار وجه "سيسي" ولم تحر جواباً، فقال السيد "جرادجريند" غاضباً:

إن البنت رقم (20) بنت غبية، إنها لا تعرف مجموعة الحقائق المتعلقة بحيوان عادي.. سوف أسأل ولداً.

وتحرك الأصبع المربع في الهواء وتوقف مشيراً إلى "بيتزر" ، وهو طفل أشقر الشعر أبيض الوجه.. فاتح لون العينين، باختصار كل ما فيه كان شاحب اللون أو أبيض، أشار إليه السيد "جرادجريند" وسأله:

والآن يا "بيتزر" .. ما هو الحصان؟

فأجاب "بيتزر" بثبات:

- حيوان يا سيدي، من ذوات الأربع.. يأكل الحشائش أو الحبوب، عدد أسنانه أربعون سنة.. يسقط شعره في الربيع، ويحتاج إلى حدوه من الحديد في البلاد الرطبة ويعرف سنه من علامات في فمه و...

فقاطعه السيد "جرادجريند" موجهاً الحديث إلى "سيسي":

- البنت رقم (20).. هل سمعت هذا؟ الآن قد عرفت الحقائق التي يجب أن تعرفيها عن الحصان.

لم يكن من الممكن أن يحمر وجه "سيسي" أكثر من هذا، فانحنت ثانية وجلست في أدب، وهنا تقدم الشاب الأنيق المهذب للأمام.. كان ضابطاً في الحكومة وكان لا يتعامل هو الآخر إلا مع الحقائق.. تقدم وقال:

- أبنائي وبناتي، استمعنا الآن للحقائق المتعلقة بالحصان، والآن – أصغوا إلى.. إذا افترضنا أنكم تريدون تجميل هذه الحجرة فهل تراكم تضعون صوراً للخيل على جدرانها؟

فأجاب نصف التلاميذ في صوت واحد **قائلين:**

- نعم يا سيدي.

فحرك الضابط رأسه علامة عدم الموافقة وفي الحال صاح النصف الآخر من التلاميذ:

- لا يا سيدي.

فقال السيد المهذب:

- لن تفعلوا! بالطبع لن تفعلوا.. فهل رأيتم أبداً خيولاً تجري على الجدران؟ هل رأيتم هذا؟!

أجابت بضعة أصوات خافتة بـ "نعم يا سيدي" ولكنها غرقت وسط طوفان من الصياح بـ "لا يا سيدي".

فقال الضابط:

- بالطبع لا، فأنتم لم تروا مثل هذا من قبل. فالخيول التي تجري على الجدران ليست أمراً واقعياً.

فقال السيد "جرادجريند" مؤمناً بإعجاب:

- هذا صحيح. صحيح جداً.

واستطرد السيد المهذب **قائلاً:**

- والآن أنتم جميعاً ترون أننا يجب ألا نحتفظ بالأشياء غير الواقعية. والآن.. إذا أردتم شراء سجادة، فأي نوع من السجاد تشترون؟ هل تشترون سجادة رسمت عليها صور أزهار؟

أجاب الجميع – هذه المرة – "بلا يا سيدي" فقد تعلم التلاميذ أن هذه هي الإجابة الصحيحة على كل أسئلة هذا السيد. ولكن صوتاً واحداً – للحق كان معه صورتين آخرين خافتين – أجاب بـ "نعم يا سيدي" .... كان هذا هو صوت "سيسي"، وبسرعة **قال السيد المهذب:**

البنت رقم (20)، هل تشترين سجادة رسمت عليها صورة أزهار؟!

فاحمر وجه سيسي وانحنت بشدة وهي تجيب **بصوت خافت:**

نعم يا سيدي، فأنا أحب الأزهار.

ولكن الناس يسيرون فوق السجاجيد، فهل تحبين أن تدهس الأحذية الغليظة أزهارك؟

إن الأحذية لن تؤذي الأزهار المرسومة يا سيدي فقط أنا أحب أن أتخيل السجادة بأزهارها وكأنها حديقة جميلة.

فصاح السيد المهذب:

- "أتخيل"! ماذا تعنين بـ.. "أتخيل"؟ يجب ألا تتخيلي أبداً؟

وهنا تدخل السيد "جرادجريند" مقاطعاً بشدة وغضب وقال:

- "سيسيليا جوب" .. أنني أمنعك أن تتخيلي أي شيء.

وصاح السيد المهذب قائلاً:

- الواقع .. ثم الواقع .. ثم الواقع..

فرد السيد "جرادجريند":

- نعم، الواقع.. ثم الواقع.. ثم الواقع.

ثم استطرد السيد المهذب **قائلاً:**

- في هذه المدرسة، يجب أن تنسوا كلمة "الخيال" عندما ترسمون.. لا ترسموا خيولاً أو أزهاراً فعلى الورق لا توجد هذه الأشياء! وعندما تقرأون يجب أن تقرأوا عن حقائق الواقع، وعندما تكتبون يجب أن تكتبوا الحقائق.. والحقائق ولا شيء غير الحقائق، هل تفهمونها هل تفهمين يا ابنتي رقم (20)؟!

فأجابت البنت وقالت:

- نعم يا سيدي.

ثم جلست، كانت صغيرة وجميلة، ولم تكن تعتقد أن عالم الحقائق المجرد من الخيال يمكن أن يكون عالماً سعيداً.

- 2 -

كان السيد "جرادجريند" يشعر بسعادة بالغة وهو يسير عائداً إلى بيته في هذا المساء فتلاميذ مدرسته سيصبحون عما قريب في نفس ذكاء أطفاله هو شخصياً. ومن المؤكد أنه لا يوجد مربي يستطيع أن يتفوق عليه في تربية أطفاله الخمسة.

بالطبع، كان بيت السيد "جرادجريند" والذي يسميه "ستون لودج" يحتوي على حجرة للدرس .. في الحقيقة كانت هذه الحجرة هي السجن الخاص بأطفاله، وهي أول مكان تخطو إليه أقدامهم بمجرد أن تتعلم كيف تخطو، ولو فتشنا في ذاكرة أطفال "جرادجريند" عن أول ذكرى، لوجدناها.. سبورة سوداء!! أن أطفال عائلة "جرادجريند" لا يعرفون شيئاً عن قصة "الدببة الثلاث"ولكنهم – بالطبع – يستطيعون ترديد "الدب حيوان من ذوات الأربع له جسم ضخم وغطاء سميك من الفرو". وهم أيضاً لم يسمعوا عن.. الرجل الذي يحيا فوق القمر"... يعيش فوق القمر!.. أوه.. لا! فالقمر – في علمهم – صحراء جافة خالية مملوءة بالصخور والرمال. أما الشمس.. فهي أبداً لم تبتسم لأحد من أطفال عائلة "جرادجريند"! وكيف لها أن تفعل؟!... إنها مجرد كمية من الغازات الساخنة.

أما ستون لودج نفسه فكان منزلا مربع الشكل كبيرا، يبعد ميلاً خارج مدينة كوكتاون في شمال غرب انجلترا، ولم يكن به أي شيء خيالي.. فله ست نوافذ على كل جانب من جانبي الباب الأمامي، وله اثنتا عشرة نافذة في الخلف.. وكان منسقاً ومنظماً.. فهكذا يجب أن تكون بيوت السادة الوجهاء، وكأي شيء في حياة السيد جرادجريند، كان ستون لودج واقعاً لا خيالاً.

كانت أعمال السيد "جرادجريند" قد جعلت منه رجلاً غنياً.. فقد كان يشتري الأواني المعدنية من المصانع ويبيعها للمتاجر، وكان العائد الضخم الذي يربحه من تجارته هو الحقيقة الوحيدة التي لم تفشل في إسعاده أبداً.. الآن أصبح لدى السيد "جرادجريند" عمال وموظفون يقومون بمعظم العمال. وبالتالي توفر له المزيد من الوقت لأشياء أخرى هامة، والحكومة القوية، الناجحة هي أحد هذه الأشياء الهامة التي يهتم بها السيد "جرادجريند"، فهو يود أن يصبح نائباً في البرلمان عن مدينة كوكتاون.. ولماذا لا يكون؟!.. لقد عاش حياته في هذه المدينة، كما أنه بنى وأنفق على المدرسة الجديدة، وبخبرته كرجل أعمال يمكنه أن يكون نائباً ممتازاً، وهناك أيضاً لا ننسى ميزة مؤكدة وهي أن البرلمان في حاجة لرجال واقعيين يؤمنون بالحقائق فقط.

إن "توماس جرادجريند" رجل أعمال ناجح وصعب المراس (هكذا يقول سكان كوكتاون) وليست هناك متعة أو لهو في حياة السيد "جرادجريند".. ولأن السيد جرادجريند رجل يحب الحقائق فقط، فقد أزعجه جداً أن يسمع صوت موسيقي بينما هو يسير في طريقه إلى بيته في ذاك المساء، فالرجال ذوو الرؤوس الصلبة يستمتعون بحياتهم أكثر بدون موسيقى – هكذا كان يعتقد "جرادجريند" – ولهذا ضايقه صوت الموسيقى، كان الصوت يأتي من خيمة سيرك "سليري" التي بنيت عند أطراف المدينة، وعند باب السيرك.. كان يقف "سليري" نفسه، رجل بدين يحمل صندوق نقوده ويصيح:

- أسرعوا .. هلموا .. الخيل مستعدة – هلموا ... شاهدوا الأنسة "جوزفين سليري" الشهيرة التي تركب جوادها البيض واقفة على ظهره.. أسرعوا .. هلموا .. شاهدوا السيد جوب وهو يمتطي صهوة جواده ومعه كلية المدرب "ميري ليجز".. شاهدوا أيضاً السيد "شيلدرز"..

لم يتوقف السيد "جرادجريند" بالطبع فليس عنده وقت يضيعه في مثل هذه الأشياء التافهة،انعطف الطريق إلى اليسار وأصبح يمر خلف الخيمة الكبيرة، وهناك رأي السيد "جراد جريند" ثلاثة أو أربعة من الأطفال خلف الخيمة .. كانوا .. نعم!.. كانوا يسترقون النظر من خلال ثقب صغير في الخيمة ليشاهدوا ما يحدث داخل السيرك!

فقال "جرادجريند" في نفسه: "يا لهؤلاء الأشقياء ! إنهم لم يذهبوا إلى المدرسة ظهر اليوم، سوف اقترب منهم، ربما عرفتهم...".

وبالفعل عرف منهم اثنين على الفور.. ابنته "لويزا" وأخوها "توماس الصغير" .. فصاح "جرادجريند" منادياً عليهما في حدة:

فاستدار بسرعة وجهان صغيران تكسوهما حمرة الخجل.. نظرت لويزا لأبيها في تحد صبياني بينما لم يرفع "توماس" رأسه من الأرض لشدة خوفه، **وصرخ السيد "جرادجريند"**:

- إنني .. لم أفاجأ في حياتي إلى هذه الدرجة من قبل.. ماذا تفعلان؟!

فأجابت لويزا بنبرة فيها تحد:

- كنا نود أن نرى كيف يكون السيرك؟
- كيف يكون؟!.. سيرك؟!
- نعم يا أبي!

خيم الحزن والأسف، على وجهي الطفلين، خاصة "لويزا"، وإن كان هناك بريق ينبعث من عينيها بريق غير مستقر، كان بهما نار جائعة .. عجيبة.. تريد أن تبقى على نفسها مشتعلة بغير وقود يحترق!

كانت "لويزا" فتاة في الخامسة عشر أو السادسة عشر من عمرها .. امرأة تقريباً.. وكانت جميلة، وكان أبوها يعرف ذلك وكان يقول في نفسه: أنها ربما عانت كثيراً بسبب جمالها، لو أن شخصاً غيره تولى تربيتها.

أخيراً **قال السيد "جرادجريند"**:

- "توماس".. أنني أوجه إليك اللوم على هذه المغامرة! إن فتى في مثل تربيتك وتعليمك كان الأحرى به ألا يحضر أخته لمثل هذا المكان.

فردت لويزا بسرعة:

- أنا التي أحضرته يا أبي.. فقد طلبت منه أن يأتي معي.
- إني جد حزين لسماعي هذا. ولكن هذا ليس عذراً يا "توماس"، وفي نفسي الوقت فإن موقفك أصبح أشد سوءاً يا "لويزا".

فنظرت "لويزا" في وجه أبيها ثانية. هذه المرة بعينين غير دامعتين، بينما أستأنف أبوها الكلام **قائلاً**:

- أنت يا توماس!.. وأنت! إن كل المعارف مفتوحة أمامكما وتربيتكما تربية كاملة، وكل حقائق الكون في متناول أيديكما.. ثم تأتيان إلى هنا!.. أنت وتوماس!.. إلى السيرك!! أنا لا أستطيع أن أفهم هذا.. لا أستطيع.
- كنت متعبة، منذ وقت طويل وأنا أشعر بالتعب.
- متعبة؟ من أي شيء؟.
- لا أعرف.. ربما من كل شيء.
- إنك تتكلمين كطفل صغير.. لا أريد أن أسمع منك كلمة أخرى.

وساروا – ثلاثتهم – حوالي نصف الميل في صمت، ثم تساءل السيد **جرادجريند قائلاً**:

ترى ماذا يقول أفضل أصدقائك عنك عندما يعرفون؟ ألم تفكري في هذا؟ ماذا يقول السيد "باوندر باي"؟

ما أن سمعت لويزا أباها ينطق بهذا الاسم حتى نظرت إليه بسرعة نظرة ذات مغزي، ثم أشاحت بوجهها بعيداً.. ولم يلحظ أبوها أي شيء.. بل ردد سؤاله:

- ماذا يقول السيد "باوندرباي" ؟ ماذا يقول؟.

وأخذ يردد نفس السؤال طوال الطريق حتى وصلوا إلى ستون لودج، ليجدوا "باوندر باي" في انتظارهم.

كان السيد "باوندرباي" يجلس بجوار المدفأة عندما دخل السيد "جرادجريند" وبصحبته ابنته "لويزا" وابنه "توماس". وجلس جرادجريند على مقعد بجوار المدفأة أيضاً. ونظر باوندرباي إلى لويزا نظرة كأنه يقول بها (هآنذا رجلك .. باوندرباي).

كان السيد "باوندرباي" رجلاً ضخم الجسم فظا.. عالي الصوت و .. غنيا جداً، فقد كان يملك أكبر مصنع للنسيج والملابس الجاهزة في "كوكتاوت"، وهو أيضاً صاحب المصرف الوحيد وهو – على حد تعبيره – رجل عصامي بني نفسه بنفسه. وقد اعتاد على الصياح متباهيا – على مرأى ومسمع أن الناس– **بقوله**:

- لم يكن عندي حذاء ارتديه .. كنت حافيا يا سيدي، ولم يحمل جيبي مليما واحداً.. لأنه في الحقيقة لم يكن لي جيب .. يا سيدي. رمتني أمي في الشارع وأنا ابن الرابعة من عمري.. أتسول في الشارع طيلة النهار، وحين يأتي الليل.. أنام على أرصفته، لم أذهب في حياتي إلى مدرسة، ولكني علمت نفسي بنفسي، كل هذا ولكن – انظر إلى الآن يا سيدي.. يا سيدي.. إنني رجل عصامي.

كان السيد "جوزيه باندرباي" – وهذا هو اسمه كاملاً – أحمر الوجه، صلب الرأس، في الثامنة والربعين من عمره وإن كان يبدو أكبر سناً من هذا.. على الأقل بعشر سنوات. وله صوت جهير كأنه صوت الرعد. ولأنه رأسه أصلع خال تماماً إلا من شعيرات قليلة. فقد اعتاد الناس في كوكتاون أن يسخروا منه – فيما بينهم – بقولهم أن (صوته الرعدي قد أطاح بشعره منذ زمن بعيد).

نظر "باوندرباي" إلى "لويزا". ولكنه عندما تكلم .. تكلم إلى "توماس" **قائلاً:**

- إنك لا تبدو سعيداً الليلة يا "توماس".

فقالت "لويزا":

- كنا نحاول مشاهدة السيرك. ولكن أبي أمسك بنا.

فصرخ أبوها:

- إن مشاهدة السيرك عمل مشين مثل .. مثل قراءة الشعر تماماً! ألا توافقيني على هذا يا مسز "جرادجريند"؟

فقالت زوجته:

- بلي؛ بالتأكيد، إنني لا أستطيع أن أفهمكما يا لويزا.. أنت وتوماس. فلماذا تذهبان لمشاهدة السيرك؟! أليس لديكما ما يكفي من العمل في حجرة الدرس؟: كما تعرفان أن رأسي المسكين مصاب بالصداع دائماً فلا يمكنه تذكر نصف ما تعرفان من الحقائق والعلوم.

فقالت لويزا بتحد:

- إن هذا هو السبب!

فقالت لها أمها:

- لا يا لويزا، ليس هذا هو السبب، أنت تعلمين هذا!.. والآن اذهبا إلى حجرة الدرس وذاكرا شيئا، لكم كنت أتمنى أن أحظى بمثل فرصتكما في التعليم.

لم تكن السيدة "جراد جريند" متعلمة حقاً، فهي لا تعرف إلا القليل من حقائق الكون، وقد تزوجها السيد "جراد جريند" لأن – على حد تعبيره – الرأس الفارغ، أفضل كثيراً من رأس تملؤه الخيالات والأوهام.

أخيراً، أصبح السيدان الوجيهان وحدهما، فقال السيد "جرادجريند" **مخاطباً صديقه:**

- "بندرباي"، إنني قلق للغاية – فأولادي تلقوا أحسن تربية وأحسن تعليم.. أقصد أنهم تعلموا كل الحقائق العلمية تقريبا، ولكن .. الآن أشعر أن شيئاً آخر بدأ يزحف على رأسيهما، وإني لأتساءل ما الذي يدفعهما لزيارة هذا السيرك؟ ما رأيك؟

فأجاب باوندرباي:

- ربما تكون الأحلام.
- أوه، آمل ألا يكون هذا! ولكن .. بالفعل.. ربما تكون على حق.

إن أحلام اليقظة شيء سيء بالنسبة لأي إنسان ولكنها تصبح شيئاً مرعباً إذا كان الأمر يتعلق بفتاة مثل لويزا. إني أتساءل عما إذا كان أحد ما قد تحدث معها في هذا الأمور.. ألا يوجد طفل من السيرك ملتحق بمدرستك؟.

فامتقع وجه السيد "جرادجريند" **وأجاب:**

نعم، "سيسيليا جوب" لقد رأيتها اليوم فقط..

فأخذ السيد باوندر باي شهيقا عميقاً ثم قال:

حسن، اطردها يا جرادجريند".. اطردها في الحال.

الحق ما تقول، فلنذهب سوياً لأبيها.. الآن، فقط انتظرني ريثما احضر العنوان من مكتبي.

وفي أثناء انتظاره، ذهب باوندرباي إلى حجرة الدرس، حيث كانت "لويزا" و "توماس الابن" والصغار الثلاثة الآخرون، أطفال عائلة جرادجريند، وكانت الصغيرة "جان" قد رقدت فوق صفحة مملوءة بالصور.

قال السيد باوبندرباي:

- كل شيء على ما يرام الآن، فقط لا تذهبا للسيرك ثانية وسيسامحكما أبوكما هذه المرة والآن يا لويزا.. ألا استحق قبلة على هذا؟ .. أليس كذلك؟

فقدمت له لويزا خدها ولكنها لم تنظر إليه بعينيها **وقالت:**

يمكنك أن تأخذ واحدة يا سيد باوندرباي!

فقبلها باوندرباي وهو يقول لها:

- أنت دائما سيدتي الصغيرة، إلى اللقاء.

وبمجرد أن خرج.. أخذت لويزا تمسح خدها لتمحو أثر القبلة.. وأخذت تحكه بعنف حتى أصبح محمراً جداً. فداعبها أخوها توماس **قائلاً:**

- سوف تحفرين حفرة في خدك يا لو.
- لو أنك قطعت هذه البقعة التي قبلها بسكينك يا توماس، لما وجدتني أتألم أو أبكي.

- 4 -

أسرع كل من السيد باوندرباي والسيد جرادجريند بالخروج في اتجاه كوكتاون.. كانا في طريقهما إلى شارع (بود) حيث يقيم السيد جوب والد سيسيليا.

أن أقبح حقائق الواقع والمتعلقة بكوكتاون .. هو كوكتاون نفسها، فإذا كنت تتصور أن بهذه المدينة أي مظهر من مظاهر الجمال، فقد جانبك الصواب بالتأكيد .. مبانيها بنيت بالقرميد الأحمر.. ولكن هذا كان منذ زمن طويل فقد استحال اللون الأحمر إلى لون أسود داكن قبيح بفعل الغبار ودخان المصانع، فمدينة كوكتاون مدينة صناعية..مدينة آلات ضخمة ومداخن مرتفعة وسحب كثيفة من الدخان الأسود تملأ الجو.. هكذا هي كوكتاون.. وربما هكذا ستكون.. للأبد. وفي كوكتاون توجد ترعة ضيقة مياهها سوداء اللون، ونهر صغير.. أحمر.. وهذا اللون الأحمر هو بفعل النفايات وبقايا الأصباغ التي تلقي بها مصانع النسيج في هذا النهر.

وفي مدينة كوكتاون عدة شوارع واسعة.. كلها متشابهة تماماً، وفيها أيضاً مجموعة من الشوارع الضيقة المزدحمة بالمنازل وكلها – أيضاً – متشابهة تماماً. حتى سكان هذه المنازل.. كلهم متشابهون تماماً، فكلهم يبدأون العمل في السابعة صباحاً تماماً .. وبالنسبة لهؤلاء الناس فإن اليوم يشبه الأمس .. يشبه الغد.، وهذا العام كالعام الماضي – كالعام القادم.

وكل هذه الحقائق.. لا تدهش أحداً.. فالحياة في كوكتاون تعني العمل، العمل والعمل وحده يعني الحياة واستمرارها.. ربما ليوم آخر أو .. لعام آخر.

ونعود لوصف أبنية هذه المدينة. فكوكتاون بها ثمان عشرة كنيسة مبنية بالقرميد الأحمر وكلها متشابهة، والمستشفى – المبني القرميد الأحمر – وأهم

أوجه الشبه هو إنه داخل المباني.. وداخل عقول سكانها لا يوجد مكان سوى لحقائق الواقع .. والواقع فقط.

وبرغم أن كوكتاون كانت مدينة واقعية. إلا أنها كانت تعاني من بعض المشاكل، فالعمال وأسرهم لا يذهبون مطلقاً للكنيسة ولا في أيام الآحاد، وهم يفرطون في الشراب.. بالطبع لا أقصد شرب الشاي أو القهوة!.

ولهذا كان أعضاء البرلمان يطالبون دائما بإصدار القوانين قائلين: "نحن نحتاج لقوانين صارمة .. سوف نجعل هؤلاء الناس يذهبون للكنيسة بقوة القانون و بقوة القانون – أيضاً- يجب عليهم إلا يفرطوا في شرب الخمر".

ونستطيع القول.. أن سكان هذه المدينة كانوا يشبهون "لويزا" أو توماس الابن" بوجه أو بآخر. فشيء هام قد ضاع من حياتهم.. بالتأكيد ليس الواقع، فهم يعانون تخمة في هذا الشأن، فهل ما ينقصهم هو .. الخيال؟ .. ربما كان هذا الشيء المسمى بأحلام اليقظة أو .. ربما كان المتعة والسعادة الموجودة في (سيرك سليري).

- مر السيد باوندرباي والسيد جرادجريند بالسيرك أثناء سيرهما، ولكنهما لم يلتفتا إليه.. وأخيراً.. وصلا لنهاية شارع (بود) حيث يعيش السيد "جوب" وابنته.. "سيسيليا".

فجأة ظهرت "سيسيليا جوب" وهي تجري بالقرب من ناصية الشارع، فعرفها السيد "جرادجريند" على الفور **وناداها**:

أهلا.. انتظري .. نحن نريدك!.

فاستدارت البنت رقم (20) قفلت راجعة **وقالت للسيد "جرادجريند"**:

- نعم يا سيدي

نحن نبحث عن أبيك، السيد "جوب" فهلا صحبتينا – أنا وهذا السيد المهذب – إلى حيث يسكن أبوكي فإننا نود التحدث إليه.

أفعل يا سيدي، وشكرا لك، سيدي... إذا سمعت صوت كلب فلا تنزعج فهو ليس إلا (ميري ليجز) كلب أبي المدرب وهو أبداً لا يؤذي أحداً.

ولكن ميري ليجز لم يكن بالبيت، ولا السيد جوب أيضاً، **فقالت سيسي**:

- أرجوك .. استرح لحظة يا سيدي، سوف أذهب بسرعة وأحضر أبي.
- وبعد أن أحضرت مقعدين للسيدين، جرت مسرعة لتستدعي أباها.

بعد دقيقة من هذا، دخل شاب إلى الحجرة، لم يكن فارع الطول ولكنه كان يبدو قوياً جداً تبرز عضلات صدره وذراعيه من تحت سترته، أنه السيد "تشيلدرز" رجل سيرك سليري القوي دخل "تشيلدرز" وقدم نفسه للسيدين .. **ثم سألهما**:

هل تودان مقابلة السيد "جوب"؟.

فأجاب السيد "جرادجريند" قائلاً:

- أجل، وقد ذهبت ابنته لتستدعيه، ولكننا في الحقيقة ليس لدينا ما يكفي من الوقت لانتظاره، فهل تتكرم وتبلغه رسالة منا؟

وعقب السيد "باوندرباي" قائلاً:

- نحن قوم نقدر قيمة الوقت، بينما لا يعرف مثلك قيمته أيها الشاب.
- فرد عليه "تشيلدرز" بضيق:
- إذن لا تضيع وقتنا يا سيد..

ثم استدار للسيد "جرادجريند" وخاطبه في لهجة ودية **قائلاً:**

- إن والد الفتاة قد ذهب يا سيدي.
- ذهب؟! إلى أين ذهب؟

لقد ترك السيرك يا سيدي، ففي خلال الأسبوع الماضي تضاءل نجاحه ودرجة قبول المشاهدين له.. فرحل.

فقال السيد "باوندرباي":

- يبدو أننا بين صنف غريب من الناس يا "جرادجريند" . لم يعد "جوب" محبوباً من الجمهور لهذا هرب!! والآن، إن رجلاً مثلي أنا ارتفع بنفسه..

قاطعه "تشيلدرز" قائلاً بسخرية:

- إذن فانزل بها!

وتساءل السيد "جرادجريند":

ولكن ماذا عن الصبية الصغيرة.. ابنته؟ أنه بالطبع لم يتركها، أو تراه فعل؟!

- أخشى أن هذا صحيح يا سيدي، رغم أنه وابنته كان شديدي التعلق ببعضهما البعض .. ولكن.. "جوب" أصبح عجوزاً لا يقوى على العمل بالسيرك، فأصبح يشعر بالخجل من نفسه.

وهنا قال "جرادجريند" مندهشا:

- أهكذا؟! ترك ابنته وهرب؟!

أصاب السيد جرادجريند الذهول لأنه برغم كونه رجلا صلب الرأس قوي الشكيمة كان أيضاً رجلا يعرف معنى العائلة .. رجل عائلي.. إن صح التعبير!

أجابه تشيلدرز قائلاً:

- لقد كان خجله شديداً لدرجة لم يستطع معها أن يبقى بجوار ابنته، فقد كان يحبها لدرجة أنه....

وهنا صاح "باوندرباي" مقاطعاً بصوته الرعدي:

لدرجة أنه تركها وهرب، حسنا.. هذا شيء طيب، سوف أخبرك بشيء أيها الشاب، أنني أفهم مثل هذه الأشياء.. قد تندهش.. ولكن أمي أنا أيضاً تركتني صغيراً وهربت.

لست مندهشاً! يا سيدي فقد فعلت والدتك الشيء الصواب، ولكن أرجوك لا تصرخ بصوت عال هكذا فجدران هذا البيت المتهالك قد تسقط لو أنك تحدثت بمثل هذا الصوت ثانية...

ثم استدار تشيلدرز لجرادجريند وأكمل حديثه قائلاً:

- .. كان جوب حزيناً طوال اليوم وقد رحل قبل أن تعود "سيسي" من المدرسة وأخذ معه كلبه المدرب (ميري ليجز). إن "سيسي" لن تصدق أنه رحل وتركها.

فسأله جرادجريند:

- ولما لا؟
- لأنهما كما أخبرتك كانا شديدي التعلق ببعضهما البعض، ولم يفترقا من قبل أبداً .. ياللمسكينة سيسي إننا لم نعلمها أي شيء فلم يكن جوب يريد لها العمل في السيرك كان يريدها أن تتعلم ولهذا فإنها..

وقاطعه "جرادجريند":

لقد كان هذا رأيا صائباً.

- آه.. أجل.. وقد سعد أبوها جداً حين التحقت بالمدرسة هنا، وبالطبع نحن سنرحل عن كوكتاون الشهر القادم و...

وتمهل تشيلدرز قبل أن يكمل عبارته للنهاية ونظر في عيني السيد "جرادجريند" ثم استأنف حديثه:

إذا كنت قد جئت هنا لتساعدها يا سيدي ..إذن.. فإن السماء قد وهبتها حظاً سعيداً.

- حسن، إن مدرستي مخصصة لأطفال مدينة كوكتاون وقد جئت هنا لأخبر السيد جوب .. إننا لا نريد أحد من السيرك.. ولكن الآن.. إذا كان أبوها حقيقة قد تركها ورحل فربما أمكن..

وقطع السيد "جرادجريند" حديثه ونظر للسيد "باوندرباي" ثم قال:

- "باوندرباي".. ألا تنصحني بشيء؟.. أيها الشاب هل تمانع في تركنا وحدنا للحظة؟فخرج شيلدرز ووقف أمام باب الغرفة حيث كان باستطاعته أن يسمع جزءاً من الحوار الدائر بين السيدين!

- لا .. أقول لك .. لا .. يا "جرادجريند"!

مثلاً للويزا.. نهاية حياة شيطانية يا "باوندرباي" وإني لأمل أن ..

في هذا الوقت كان بقية أفراد السيرك قد تحلقو خارج باب الغرفة بجوار تشيلدرز. كان خليطاً عجيباً من البشر.. مدربو خيول ومروضو حيوانات متوحشة راقصون ومغنون.. نساء بدينات وأخريات نحيفات، بعضهن جميلات وبعضهن قبيحات جداً، ولكنهم جميعاً يبدون – بطريقة ما – متماثلين، فهناك سمة واحدة تميزهم جميعاً.. البساطة والرقة ... رقة كرقة الأطفال، ومن عيونهم كانت تطل نظرة ملؤها الأمانة.. والرحمة أيضاً! كانوا صنفاً من الناس يحب مساعدة الآخرين .. دون حساب للتكاليف..

أخيراً وصل السيد "سليري" ودخل الغرفة وقال مخاطباً السيد جرادجريند:

- هل سمعت عن رحيل السيد جوب وكلبه، يا سيدي؟ ألهذا أنتن هنا؟ .. بخصوص البنت؟

- أجل ولسوف أقدم اقتراحاً عندما تعود.

- أنا سعيد بهذا يا سيدي، فأنا لا أريد أن أتخلص من البنت بأية طريقة.. لا فهناك ما يشبه القانون يحكمنا هنا في السيرك .. إننا جميعاً نساعد بعضنا البعض.

- آه، أجل.. بالطبع.

أستأنف "سليري" حديثه قائلاً:

إن خطتك من أجل مستقبل "سيسي" قد تكون خيراً من خطتي، إذا بقيت معنا فسيكون عليها أن تعمل في السيرك وسيكون عليها أن تبدأ من القاع وأبوها لم يكن يريد..

في هذه اللحظة عادت سيسي ودفعها الواقفون بالخارج إلى داخل الغرفة ثم عادوا وتحلقوا حول الباب.

كانت سيسي تبكي ودموعها على خديها وهي تقول:

- آه يا أبي العزيز.. يا أبي الطيب! ماذا عساك ستفعل بدوني؟ كم ستكون قليل الحيلة؟!

وهنا صرخ السيد باوندرباي قائلاً:

- اسمعوا جميعاً .. إننا نضيع الوقت هكذا، إن أمي تركتني وهربت ووالد هذه البنت فعل نفس الشيء.. والحقائق واضحة.. إن أبوها قد هرب ولن يعود ثانية ولن تراه مرة أخرى..!

فقال أحد الواقفين خارج الغرفة:

- من يكون هذا؟ هل يعتقد هذا الشخص أنه يعرف كل شيء؟.

وصاحت النساء:

- يا للعار.. إنه إنسان متوحش فظ!

فاقترب "سليري" من "باوندرباي" وقال له:

- إن عشيرتي.. هؤلاء، ليسوا مؤذيين بما فيه الكفاية، ولكن النافذة مفتوحة يا سيدي وأخشى أن أنت تفوهت بكلمة أخرى فلربما قذفوا بك من خلالها ولهذا .. خذ بنصيحتي والزم الصمت.

أخذ السيد "باوندرباي" بالنصيحة ولكن وجهه كان يتميز من الغيظ. بعد هذا قال السيد "جراندجربند":

- حسن لقد ذهب الرجل. قد يعود ثانية..لا نعلم متى، أعتقد أننا جميعاً نتفق على هذا الرأي.

فأجاب "سليري":

- أجل يا سيدي، هذا صحيح.
- لقد كنت قررت أن أطرد سيسيليا جوب من مدرستي، ولكن الواقع قد تغير الآن، أنها لا تنتمي للسيرك لأن أباها قد تركها، وأنا على استعداد لأن أرعاها وأعلمها إذا وافقت.. فسيكون عليها أن تأتي معي الآن.. كما سيكون عليها ألا تراسل أيا منكم بعد الآن سيداتي وساداتي، وهذا كل ما عندي لأقوله.

فقال "سليري":

- إن هذا كرم وعطف منك يا سيدي، والآن جاء دوري لأقدم عرضي، ثم بعد هذا تتخذين قرارك يا سيسيليا، إذا اخترت البقاء معنا فسوف تعيشين مع "إيما جوردون" وأنت تعرفين أي نوع من العمل سيكون عليك أن تتعلميه وتعرفين أي نوع من الحياة ستعيشين .. أعتقد أن هذا كل شيء..

فقال جرادجريند:

- هذا عدل جداً.. تذكري يا آنسة "جوب" أن تعليم الفتاة شيء هام وأبوك كان يريد لك أن تتعلمي .. أليس كذلك؟ يجب أن تفكري في هذا.. ثم تقرري وكوني واثقة أن قرارك سيكون بعد تفكير.

توقفت "سيسي" عن البكاء للحظة، ولكن فجأة اندفع الدمع من عينيها غزيراً **وقالت:**

- إذا عاد أبي، أريد أن أكون في انتظاره، وإلا كيف .. كيف سيجدني بعد هذا؟

فقال السيد"جرادجريند" بهدوء:

- لا تقلقي بهذا الخصوص يا "جوب" فأبوك سيستطيع بسهولة أن يهتدي لسيرك السيد سليري . والسيد سليري سوف يخبره أنك في بيت السيد "توماس جرادجريند" و؟أنا "توماس جرادجريند" من وجهاء كوكتاون كما أني معروف جداً. وبالطبع لن يمكنني أن أحتفظ بك لو أن أباك طلبك

وطوال العشر دقائق التالية انهمرت دموع غزيرة على خدي سيسي، ولكن قبلات كثيرة أيضاً طبعت على خدها. وساعدت في كفكفة الدموع. وأخيراً أصبحت سيسي مستعدة بسلتها الصغيرة التي تحوي ملابسها وتتابعت الأصوات.."مع السلامة يا سيسيليا".. "وداعا سيسي" .."لا تنسيني يا سيسي"!

ثم كانت الكلمات الأخيرة.. قالها السيد سليري للسيد جرادجريند:

إنها لن تنسانا يا سيدي، فنحن نسعد الناس... ننسيهم أحزانهم.. هذا هو عملنا فالناس يجب أن يجدوا من يسري عنهم، أنهم لا يستطيعون أن يعملوا طول الوقت.

وسار السيد جرادجريند والسيد باوندرباي ومبتعدين وبينهما سارت البنت رقم (20)..

- 5 -

لم يكن السيد "باوندرباي" متزوجاً، لهذا كان يستخدم مديرة لمنزله.. "مسز سبارسيت"تعمل كمديرة منازل في الحقيقة، ولكنها كانت سيدة تنتمي لعائلة كبيرة غنية، إلا أن السيد سبارسيت زوجها توفى شاباً ثم ما لبث أن دب الخلاف بين مسز سبارسيت وعائلتها فغادرت منزل العائلة وكان لزاماً عليها أن تجد عملاً.

وكان السيد "باوندرباي""ومسز سبارسيت" يشكلان ثنائياً غريباً وعجيباً من البشر فالسيدة كانت فخورة بماضيها وأصلها العريق في حين أن حاضرها يثير خجلها وحزنها، أما السيد فدواعي افتخاره هي أنه كان فقيراً وضيعاً في يوم من الأيام..وقد أعتاد أن يقول لأصدقائه:

لقد ارتفعت من الحضيض إلى هذا المستوى الذي أعيش فيه بمجهودي وحدي، أما مسز "سبارسيت" فبرغم كل الفرص التي تمتعت بها فإنها وصلت في النهاية إلى لا شيء؟

عندما غادر السيد باوندرباي والسيد جرادجريند (بود ستريت) أخذا سيسي إلى بيت السيد باوندرباي ونامت هناك تلك الليلة، فقد كان على السيد جرادجريند أن يعد لها غرفة في ستون لودج قبل أن تنتقل إليه.

وفي الصباح التالي، قال السيد "باوندرباي" للسيدة سبارسيت":

هذه البنت ستنتظر هنا يا "مدام" حتى يحضر "توم جرادجريند" إنني قلق لهذا الوهم الغريب فالفكرة ليست في صالح "لويزا" على الإطلاق.

آه يا سيدي .. إنك أب آخر للأنسة "لويزا".

- مدام .. قولي أب آخر، "لتوم الابن" فهذا محتمل فعن قريب سيعمل عندي في المصرف وسيأتي ليعيش معنا. قولي يا (مدام) هل تعرفين شيئاً عن لاعبي السيرك هؤلاء؟!

- قد تعلمت القليل عن الحياة الوضعية.. منك يا سيدي؟

فضحك باوندرباي وقال:

- أجل .. أجل، بالطبع، فأنت قد ولدت وعشت في القصور، أما أنا فولدت في الشارع.
- هذا صحيح يا سيدي، فإني ولدت في القصور وفي رفاهية أما أنت فـ..

في هذه اللحظة فتح الباب ودخل السيد "جرادجريند، ومعه لويزا، فتصافح السيدان وطبع السيد "باوندرباي: قبلة على خد "لويزا". ثم استدعيت "سيسي" التي انحنت تحية لكل الموجودين .. ثم بدا السيد "جرادجريند" الحديث **قائلاً "لسيسي":**

- حسن يا أنسة "جوب" لقد قررنا لك مستقبلك، سوف تعيشين في بيتي وتذهبين إلى المدرسة كل يوم، لعلك لا تعرفين أن السيدة زوجتي مريضة وعلى هذا فيمكنك الاعتناء بها في الأيام التي لا تذهبين فيها إلى المدرسة. لقد أخبرت الأنسة "لويزا"- هذه هي الأنسة "لويزا" – عن حياتك السابقة في السيرك.. هذه الحياة انتهت الآن ويجب عليك ألا تتحادثي عنها ثانية. فالآن يجب عليك أن تبدأي في تلقي العلم وقولي لي .. ألا تعرفين أي قدر من الحقائق الواقعية يا "جوب"..؟

فأجابت سيسي وهي تنحني:

- لا يا سيدي.
- إني سوف أغير هذا الوضع بسرعة.

ثم اقترب من سيسي أكثر **وقال بصوت خافت:**

- هل تستطيعين القراءة يا جوب؟
- أوه! أجل يا سيدي، فأبى لم يكن يحسن القراءة.. ولهذا فقد أعتدت أن أقرأ له.. لقد كانت أسعد أوقاتنا تلك التي كنا نقضيها معاً في القراءة.
- وماذا كنت تقرأين؟

- قصصنا يا سيدي.. قصصاً رائعة، عن الجنيات الطيبات والجنيات الشريرات، وعن "روبنسون كروزو و"جاليفر" و ":الملك العاري".. آه يا سيدي وكم كنا نسرح ونسبح في الخيال!
- هيه.. هذا يكفي، يجب ألا تسرحي ثانية يا جوب .. أبداً، إن هذا لجد خطير يا باوندرباي إن الضرر لقد وقع بالفعل ويجب أن أبدأ في الحال في إصلاحه!

فقال باوندرباي:

- لقد حذرتك يا جرادجريند.. لقد حذرتك بالأمس، إنك مقدم على فعل لم أكن لأقدم عليه، ولكن هذه مشكلتك.. إذن استمر، إذ كنت عقدت عزمك فتقدم.
- بعد هذا بقليل أخذ السيد "جرادجريند" و "ابنته" و "سيسيليا جوب" إلى "ستون لودج، وطوال الطريق لم تنطق لويزا بكلمة واحدة.. طيبة أو غير طيبة. بينما لم يكف السيد جرادجريند عن ترديد قوله: لا تسرحي يا جوب .. لا تسرحي أبداً!!

"لا تسرح أبداً".. هذه الجملة الصغيرة ربما كانت القانون الذي يحكم حياة السيد جرادجريند، وهي أيضاً سر تربيته.. فما دام الإنسان يستطيع أن يجمع ويطرح وأن يضرب ويقسم.. إذن فهو يستطيع القيام بأي شيء آخر.. إذن فلا أحد يحتاج أن يسرح بخياله.. تلك كانت فلسفة السيد "جرادجريند" ولم تكن غريبة عليه. أما الغريب حقاً فهو أن سكان "كوكتاون" كانوا يوافقون السيد جرادجريند"على فلسفته هذه. إذن فلماذا تمتلئ مكتبات المدينة بالكتب والقصص الخيالية؟ إن هذا السؤال كان يؤرق السيد "جرادجريند" ويعكر عليه صفو حياته أن الناس يستطيعون القراءة.. وهم يقرأون بالفعل قصصاً

عن الجن. وهم يستمتعون بمغامرات روبنسون كروزو وجاليفر ويسرحون بخيالهم معهم، وينفعلون بهم فرحاً وحزناً.

لكن بالطبع لا مكان لهذه الكتب في مكتبة بيت السيد جرادجريند، ولويزا وتوم الابن لا يعرفان شيئاً عن قصص الجان أو عن مغامرات الأبطال. وقد دار هذا الحوار بين الأخوين ذات مساء بعد انتهاء العمل في أحد الأيام بغرفة الدرس، **وقال توم**:

- لقد تعبت من هذه الحياة يا لو.. إنني أكرهها .. أكره الكل ما عداك يا لو.
- إنك لا تكره سيسي يا نوم.. أليس كذلك.
- لقد فرض علينا أن تناديها بـ جرب ... وأنا أكره هذا، وأعتقد أنها تكرهني.
- لا أنها لا تكرهك يا توم .. أنا واثقة من هذا.
- بل أعتقد أنها تكرهنا جميعاً، أننا نجعلها تمرض قبل الأوان، لقد بدأ السقم يبدو عليها بالفعل
- إن دروسها تتبعها ..
- أنا حمار يا لو .. إنني غبي كالحمار، وأشعر أني بالفعل حمار، ولا ينقصني سوى أن أرفس الناس!

فقالت لويزا ضاحكة:

- إلا أنا .. أمل هذا يا توم.

لا .. ما كنت لأوذيك يا لوو، فإنني لا أستطيع الحياة في هذا.. هذا السجن بدونك..

كثيرا ما كنت أتساءل لماذا لا يمكنني أن أجعلك أسعد حالاً، إنني كبرت ولكني لا أستطيع أن أفعل أي شيء يثير البهجة، فأنا لا أجيد عزف الموسيقى.. ولا أحسن الغناء ولا أعرف أي قصص يمكن أن أحكيها لك.. إنني حتى لا أعرف أي شخص يمكنني أن أحدثك عنه.

ولا أنا، بل أني حمار أيضاً.. أبي قرر لي أن أصبح حماراً.

إنها لمأساة كبيرة يا توم فكلانا لا يستطيع مساعدة الآخر.

أنت شيء مختلف.. فأنت فتاة .. فتاة رائعة! أنت المتعة الوحيدة التي لي. بل إن بإمكانك أن تجعلي هذا المكان براقاً كما أن بإمكانك قيادتي كيفما تشائين.

- لا أعتقد أن ما تقوله صحيح يا توم .. ولكنك أخي الحبيب.

ثم عبرت الحجرة وقبلت أخاها ثم عادت إلى مقعدها بجوار النافذة فقال توم:

- إنني أود أن أصنع كومة من كل الحقائق والمعارف، كل حقائق ومعارف الكون وكل الرجال الذين اكتشفوها.. الكل في كومة واحدة ثم أشعل النار في هذه الكومة حتى تصبح رماداً .. على أي حال.. فعندما أذهب للعيش عند "باوندرباي" العجوز سأغير بعض الأشياء..

فقالت "لويزا":

- كم أتمنى ألا يخيب السيد "باوندرباي" أملك. ولكنه أكثر جفاء من أبي ولا تبلغ طيبته نصف طيبة أبي

فضحك "توم" وقال بتخابث:

- أستطيع أن أتعامل مع العجوز "باوندرباي"!

كيف؟.. أم أن هذا سر؟

فقال توم بمرح:

- إذا كان سراً.. فهو ليس ببعيد! إنه.. أنت يا لوو، فأنت سيدته الصغيرة.. أليس كذلك؟ ولسوف يفعل أي شيء.. أي شيء من أجلك، وأنت ستفعلين أي شيء من أجلي، وعلى هذا – وبوضع النهايات معا كما يقول أبي – تكون المحصلة هي: أن السيد باوندرباي سيفعل أي شيء من أجلي!

وانتظر توم أن يسمع إجابة من أخته، ولكنه لم يحظ بأية إجابة.. وأخيراً **قال:**

- هل نمت يا لوو؟
- لا .. فقط سرحت بخيالي..

هكذا صرخت السيدة جرادجريند وهي تدخل من باب حجرة الدرس ثم استأنفت **قائلة:**

إنك تعلمين تماماً أن أباك قد منع السرحان.

- أجل .. أعلم يا أمي، ولكني كائن حي وقد كنت فقط أفكر في أمور الحياة.. وكم هي قصيرة؟.. أليس كذلك؟ ترى أي أشياء طيبة نستطيع أن نفعلها في حياتنا القصيرة؟

فقالت الأم في دهشة:

- هذا هراء! آه رأسي المسكين! لويزا.. إياك.. إياك أن تسألي والدك مثل هذه الأسئلة الغبية!

- 5 -

أصبحت حياة "سيسي"- سواء في المدرسة أو في ستون لودج – عبارة عن عاصفة من الحقائق والأرقام، ولم يكن هناك سوى شعاع براق يلمع مثل النجمة وسط هذه العاصفة .. هذا الشعاع هو أملها في عودة أبيها، وإن كان السيد جرادجريند قد اعتاد أن يردد على مسامعها **قوله**:

- لن يعود يا "جوب".. لقد رحل ولن يعود.. وهذا هو الواقع ببساطة!

وسرعان ما كرهت سيسي الحقائق والأرقام، وأيضا كرهتها الحقائق والأرقام، فكانت ترفض أن تسكن في رأسها وقد أخبر المدرس السيد جرادجريند أن البنت رقم (20) لا يمكنها حفظ الأرقام **فقال له:**

أنها حقاً تعرف شكل الأرض ولكنها لا تريد أن تتعلم مقدار حجمها بدقة.

ورد عليه "جرادجريند" قائلاً:

- هذا سيء للغاية، ولكن .. لا تدعها تستريح.. لقنها بالحقائق والأرقام .. باستمرار!

في البيت، لم تكن "لويزا" قد تحدثت مع "سيسي" من قبل، فالحياة في (ستون لودج) تشبه الآلة البخارية، تعمل بانتظام مادام الناس لا يتدخلون في عملها ولكن في إحدى الأمسيات عرضت لويزا على سيسي أن تساعدها في فهم درس صعب..وبعدها دار بينهما هذا الحوار.. **الذي بدأنه سيسي قائلة:**

- آه.. إنك ذكية جداً يا أنسة لويزا.. ولكم أتمنى أن أتحسن في فهم الدروس.
- إن هذا لن يفيدك في شيء يا سيسي.
- وهو أيضاً لن يضرني يا أنسة لويزا.

- لست متأكدة من هذا. إنك أكثر عطفاً على أمي .. وأكثر احتراماً لنفسك مني.
- لكنني.. غبية جداً يا أنسة لويزا، وفي المدرسة أقع في الكثير من الأخطاء.. هكذا يقول معلمي.
- حدثيني عن بعض هذه الأخطاء.

حسناً، اليوم مثلاً – قال لي المعلم: (هذا البلد يملك خمسين مليون جنيه. فهل هو أذن بلد غني وسعيد؟.. البنت رقم (20) .. هل تعيشين في بلد غني وسعيد؟

وبماذا أجبت يا سيسي؟

قلت .. لا أعرف، لأني لم أكن أعرف من يملك هذا المال، وعما إذا كان لي نصيب فيه أم لا، وبالطبع كانت هذه إجابة خاطئة. فهي ليست في الكتاب.

فقالت "لويزا":

نعم كانت إجابة خاطئة.

وتابعت سيسي حديثها قائلة:

- ثم اختبرني المعلم ثانية .. قال: (إن سكان كوكتاون يبلغون نصف مليون نسمة وفي كل عام يموت اثنا عشرة شخصاً.. نتيجة سوء التغذية).. ثم سألني: (هل هذا شيء طيب أم شيء سيء) وأجبت يقول: (إنه شيء سيء جداً .. بالنسبة لهؤلاء الاثنى عشرة وعائلاتهم) ولكن الإجابة الصحيحة كانت.. أنه شيء طيب!!.. ولم استطع أن أفهم!

ليس هذا سهل الفهم.

فقالت "سيسي" بحسرة:

- كان أبي المسكين يريدني أن أتعلم يا أنسة لويزا، وأنا أيضاً أحب أن أتعلم ولكن .. ولكنني لا أتوصل أبداً للإجابات الصحيحة.
- وهل كان أبوك يعرف الإجابات الصحيحة؟

وهنا .. تذكرت "سيسي" أوامر السيد "جرادجريند"، يجب عليها ألا تتحدث عن حياتها السابقة ولا عن أبيها.. فنظرت بحزن إلى لويزا ولم ترد على سؤالها.

فقالت لها لويزا بصوت يملؤه الحنان:

هذا ليس سؤالاً ضاراً يا سيسي، كما أن أحداً لن يستطيع سماعنا.

فقالت سيسي بتردد:

- كان .. أبي يستطيع الكتابة قليلاً ، ولكنه لم يكن يعرف الكثير.
- وأمك.. هل كانت ماهرة؟
- قال لي أبي أنها كانت كذلك ..فأنا لم أرها لأنها ماتت وهي تلدني، كانت تعمل..

وبصوت هامس أكملت:

- كانت تعمل راقصة!

فسألتها لويزا بقوة حلم مفاجئة .. قوة الحلم الضائعة أو المختبئة في دهاليز النفس المظلمة.. سألتها:

- هل كان أبوك يحبها؟
- أه.. أجل! كما كان يحبني تماماً، بل أنه أحبني في البداية لأجل خاطرها هي، ثم لم نفترق منذ ولدت.
- ولكنه تركك ورحل يا "سيسي".

- فقط من أجلي يا آنسة لويزا.. من أجلي لا من أجل نفسه، لا أحد يعرف أبي أكثر مني، أنه لن يشعر بالسعادة أبداً.. حتى يعود.
- أحكي لي "يا سيسي".. أحكي أكثر عنه ولن أسألك ثانية. أين كنتما تعيشان؟

كنا دائمي الترحال مع السيرك، ولم يكن لنا أبداً وطن حقيقي.. أو بيت نملكه في أي مكان ولم يكن أبي فارساَ ممتازاً.. في الحقيقة!

ومرة أخرى خفت صوت سيسي حتى أصبح همساً **وأكملت**:

- كان مهرجاً.
- تعنين كان يضحك الناس.
- أجل، ولكنهم في بعض الأحيان كانوا لا يضحكون، وعندئذ كان أبي يبكي، وقد بكى كثيراً منذ جئنا إلى هنا في كوكتاون.
- وأنت... هل كنت تسرين عنه عندئذ؟
- كنت أحاول..

ومن خلال دموعها قالت "سيسي":

- لكنه بدأ يخاف، بدأ يظن أنه مهرج سيء كان يريدني أن أصبح ذكية وماهرة.. مختلفة عنه.. اعتقدت أن أقرأ له كثير.. كانت كتباً خاطئة ولكننا لم نكن نعرف هذا.
- وهل كانت هذه الكتب تعجبه؟
- أوه ! جداً! كان ينسى كل متاعبه وأحزانه عندما اقرأ له، واعتاد أن يسرح في الخيال بالساعات مع الملك والجنيات.
- وهل كان طيباً مع الناس الآخرين؟

- دائما.. دائماً! وأبداً .. لم يحمل في نفسه ضغينة لأحد.
- هل كنت تتوقعين أنه سيتركك؟
- لا، ولكني كنت أحس بتعاسته..!

في هذه اللحظة دخل "توم" إلى حجرة الدرس وكالعادة.. كان يفكر في نفسه فقط وينظر شذرا للفتاتين.

فابتسمت له "لويزا" وقالت:

- كنت اسأل "سيسي" بعض الأسئلة، يمكنك أن تمكث يا عزيزي توم.. ولكن لا تقاطعنا.
- حسنا، لقد حضر "باوندرباي" العجوز مع أبي، فهل أتيت وتحدثت معه؟ .. لو فعلت ربما دعاني للعشاء عنده الليلة.
- حالاً.. سوف آت خلال دقيقة.
- إذن سوف انتظر، فقط لأتأكد أنك ستأتين

وهكذا استأنفت حديثها هامسة:

- كان أبي تعيساً لأن الناس لم يعودوا يضحكون على حركاته.، وهذا هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث للمهرج، وقد سمعته يبكي في المساء، كان يحاول أن يخفي وجهه عني، ولكني سمعته، وهو يقول: (يا عزيزتي ويا حبي يا "سيسي") وفي الصباح ضمني إلى صدره بقوة وقبلني، لم أقلق.. لأنه كان يفعل هذا دائماً كل صباح قبل ذهابي إلى المدرسة، وعندما عدت إلى المدرسة.. لم يكن هناك!!

وهنا قاطعها "توم" قائلاً:

- هيا، أسرعي يا لوو.. فالعجوز باوندرباي سيرحل إن لم يرك الآن.

فهمت "سيسي" قائلة:

- هذا هو كل شيء يا آنسة لويزا، أنا أعرف أنه سيعود أو على الأقل سيكتب لي، أو سيكتب لي السيد سليري، لهذا كلما شاهدت السيد جرادجريند يحمل رسالة يتوقف قلبي عن الخفقان وأشعر أني واثقة أنها من..

ومرة أخرى قاطعها "توم" بنفاد صبر بصوت عال:

- أو ... هيا يا "لوو" .. ماذا تنتظرين؟

ومنذ تلك الليلة .. صارت لويزا تنظر بقوة في عيني أبيها عندما كان يفتح رسائله وفي بعض الأحيان ، كانت سيسي تجد في نفسها قدراً من الشجاعة **فتسأل السيد "جرادجريند" قائلة:**

- سيد جرادجريند، هل هناك أي خطاب يخصني يا سيدي؟

وكانت "لويزا" تنتظر الرد بنفس اللهفة والرجاء اللذين كان يخفق بهما قلب سيسي، ولكن.. دائماً كانت الإجابة:

- لا يا "جوب" .. ليس هناك أية رسائل تخصك.

وعندما كانت "سيسي" تذهب للمدرسة كان "جرادجريند" يقول بصوت الحكمة:

- الأمل.. إنه سم يسري في الدم! لماذا لا تستطيع هذه الفتاة أن تفكر بحقائق الواقع فقط؟

كانت "لويزا" هي الوحيدة في ستون لودج التي تعلم مدى قوة الأمل عند سيسي. لقد كان الأمل – وهي تعلم هذا – قوياً – مجسما كالواقع تماماً.. أما "توم" الابن فهو لا يفكر إلا في نفسه والسيدة جرادجريند المسكينة يكفيها رأسها المريض .. الذي لا يسكنه غير الألم.

- 6 -

كان "ستيفن بلاكبول" نساجا.. يعمل في مصنع نسيج "جوزيه باوندرباي".. يبلغ من العمر أربعين عاماً – وإن كان يبدو أكبر من هذا – وكان انحناء منكبية وشعره الرمادي ينبئان عن حياة قاسية عاشها.

ولم يكن "ستيفن بلاكبول" متعلما - وإن كان بعض العمال يعلمون أنفسهم بأنفسهم، ويستعيرون كتباً كثيرة من مكتبة المدينة ويقرأونها، وبعضهم أيضاً يجيد في الخطابة، إلا أن ستيفن لم يكن واحداً من هؤلاء، برغم أنه كان يحب القراءة، وأهم ما كان يميز ستيفن كلابول فهو أنه نساج ماهر ورجل شريف.

دق جرس المصنع في مساء أحد الأيام ..فتوقفت الآلات وأطفئت الأنوار واندفع الرجال والنساء من البوابات الحديدة إلى الشارع، وسار بلاكبول وهو يتلفت حوله كأنه يبحث عن شخص ما وبعد برهة صاح منادياً:

- "راشيل"!

فاستدارت نحو مصدر الصوت امرأة كانت تقف تحت مصباح من مصابيح الطريق، رأى "ستيفن" وجهها الصغير الجميل وعينيها الرقيقتين – لم تكن "راشيل" فتاة صغيرة فقد كانت تبلغ من العمر خمس وثلاثين عاما، صاحت عندما وجدت أن من يناديها هو "ستيفن"، **وقالت:**

- أه يا رجل، أهذا أنت يا صديقي العجوز؟
- نعم، أما أنت فصغيرة كما كنت وكما ستكونين دائما يا "راشيل".

فقالت "راشيل" ضاحكة:

- كلانا قد كبر يا رجل، ولا حاجة بنا لإخفاء هذه الحقيقة.
- هل يمكنني أن أسير معك قليلاً في طريق العودة إلى البيت.

- أجل فربما لا يجب أن نشاهد معاً كثيراً ولكن يجب أن أراك من وقت لآخر بالطبع.
- لقد كنت دائماً .. طيبة معي يا "راشيل".. ولوقت طويل .. لهذا فطلباتك عندي قوانين، وأنا أعلم أن الناس قد يتكلمون كثيراً حتى عنك أنت.
- أوه.. لا تذكر القوانين يا "ستيفن".
- معك الحق يا حبيبتي، فالقوانين دائماً (ملخبطة).. كم فكرت وفكرت، ودائماً أصل إلى نفس النتيجة.. (اللخبطة)!!

وعندما وصلا إلى بيتها، صافحته مودعة **وهي تقول**:

- سعد مساؤك يا ستيفن!
- سعد مساؤك يا حبيبتي الأثيرة.. سعد مساؤك!

ثم تابعها بعينيه وهو واقف حتى دخلت منزلها، إنه يحب "راشيل".. يحب كل شيء فيها.. أصابعها الرقيقة.. وجهها.. صوتها، كل شيء.

كان "ستيفن" يعيش في غرفة واحدة فوق متجر صغير، وعندما وصل إلى البيت، أشعل المصباح ووجد صاحبة المتجر نائمة فلم يوقظها ودخل مباشرة إلى غرفته، كان أثاث غرفته بتألف من سرير ومنضدة وبضعة كراسي ومكتب صغير، وضع "ستيفن" المصباح على المنضدة، وبينما هو يضع المصباح.. اصطدم بشيء ما وكاد أن يسقط فوقه!!امرأة!.. نهضت من فوق الأرض مستندة على ذراع واحدة وما أن رآها "ستيفن" حتى صاح في فزع:

- يا للسماء! هل عدت ثانية!

حاولت المرأة أن تعتدل جالسة، كانت ثملة وقذرة، ثيابها كانت ممزقة، رفعت شعرها بحركة عصبية فوقع وجهها على صدرها ثم ضحكت ضحكة هستيرية **وقالت:**

- أجل يا رجل.. مرة ثانية..

ثم صرخت فيه قائلة:

- ... مرة ثانية وثالثة ورابعة .. لم لا؟

ثم نهضت واقفة مستندة على المنضدة واستدارت إلى ستيفن فجأة بنظرة ملؤها الغضب **وصاحت فيه:**

- سوف أبيع كل ما نملك.

ثم صرخت عالياً:

- سوف أبيع كل شيء.. عشرين مرة، قم، قم من فوق السرير! .. قم .. إنه ملكي.

وسارت نحو السرير، فابتعد "ستيفن" عن طريقها وجلس فوق مقعد بجوار النافذة.

فألقت المرأة بنفسها فوق السرير وراحت في النوم في الحال، أما "ستيفن" فقد جلس بجوار النافذة طوال الليل، ولم يتحرك من مكانه سوى مرة واحدة ليضع غطاء فوق المرأة النائمة.

وفي الصباح التالي كان "ستيفن" يقف أمام نوله مبكراً.. كان هناك العديد من الأنوال والعديد من العمال في مصنع "باوندرباي" .. وكان "باوندرباي" يسمى عماله "الأيدي".. وعندما دق جرس المصنع معلناً عن بدء فترة الراحة وهي ساعة يسمح بها "باوندرباي" لعماله كي يتناولوا غداءهم، فخرج العمال لطعامهم، بينما سار "ستيفن" في الطرقات حوالي عشرين دقيقة لم يكن يشتهي أي طعام في هذا اليوم، ثم توجه إلى منزل "باوندرباي" وطرق الباب ففتحت له مديرة المنزل **فقال لها في أدب:**

- هل لي أن أقابل السيد "باوندرباي" يا سيدتي؟

فسألته مسز "سبارسيت":

- ما اسمك؟
- "ستيفن بلاكبول" .. مدام!

ولما لم يكن "ستيفن" قد سبب أية متاعب للسيد "باوندرباي" من قبل سمح له بمقابلته فصحبته مسز "سبارسيت" إلى داخل البيت، وعندما رآه السيد "باوندرباي" **بادره قائلاً**:

- ما الأمر يا "ستيفن"؟ أنا أعلم ؟أنك لم تأت للشكوى، فأنت لست (يدا) غبياً تريد ملعقة ذهبية في فمك؟
- لا يا سيدي، أنا لا أفكر في الذهب!
- حسناً، إذن.. ما هي المشكلة؟

فنظر "ستيفن" إلى مسز "سبارسيت" **فقال له "باوندرباي":**

- هذه سيدة .. عظيمة، برغم أنها تعمل الآن مديرة منزل، فإنها قد ولدت في ظل الرفاهية، وإذا كنت لا تمانع في وجودها هنا .. فإنها ستبقى.
- لا أمانع يا سيدي، فكلامي لن يكون جارحاً لسيدة رفيعة المقام مثلها.
- إذن تكلم يا "ستيفن"، أنا أصغي إليك.
- لقد جئت طالباً النصح يا سيدي.. فأنا في أشد الحاجة لنصحك، فمنذ تسعة عشر عاما تزوجت فتاة جميلة.. كانت جميلة وطيبة، ولكن.. سرعان ما انقلبت إلى امرأة شريرة، لم تكن غلطتي والله يعلم أنني لم أكن زوجاً فظاً.

- لقد سمعت عن هذا من قبل، لقد أصبحت امرأة سيئة .. تشرب الخمر وتوقفت عن العمل وباعت أثاث بيتك وسببت لك الكثير من المتاعب.
- وكم حاولت أن أساعدها.. حاولت كثيراً، لقد باعت ملابسي وأثاث بيتي.. ليس مرة واحدة بل عشرين مرة، وكانت دائماً تنفق كل المال على الشراب، كانت تسير من سيء إلى أسوأ، ثم تركتني..ولكنها عادت ثانية.. كانت دائماً تعود، ماذا أصنع؟ كثيراً ما كنت أشعر بالخوف من العودة إلى البيت، وقد دفعت لها لتبقى بعيداً عني، كنت أدفع لها طوال خمسة أعوام.. لقد عشت حياة صعبة وحزينة، ولكني أبداً لم أشعر بالعار أو الخوف، وأمس.. أمس عدت لبيتي مساء، فوجدتها هناك!.. كانت مستلقية على الأرض .. ثملة؟

توقف "ستيفن" عن الكلام للحظات بدا فيها قوياً وفخوراً بنفسه، ولكن سرعان ما انحنى منكباه وبدا وجهه خاليا من أي تعبير.

وعقب السيد "باوندرباي" قائلاً:

- كنت أعرف هذا منذ وقت طويل، فيما عدا الجزء الأخير أن هذا لأمر سيء للغاية، إنها لمأساة مجرد أنك تزوجت، ولكن .. فات أوان هذا الكلام الآن.

وهنا سألت مسز "سبارسيت" السيد "باوندرباي" **قائلة**:

- هل كان يكبرها في السن بكثير يا سيدي؟

فحول "باوندرباي" السؤال إلى "ستيفن" **قائلاً**:

- هل سمعت سؤال السيدة يا "ستيفن" هل كنت تكبرها بكثير حين تزوجتها؟

فأجاب "ستيفن":

- لا يا سيدي، كنت في عامي الواحد والعشرين وكانت هي في العشرين من عمرها.

فقالت مسز "سبارسيت":

- إن هذا يدهشني يا سيدي، فإن الفارق الكبير في السن عادة يكون هو سبب التعاسة الزوجية.

نظر "باوندرباي" إلى مديرة منزله بغضب، وإن كان هناك تعبير غريب – نصف خجل – قد ارتسم على وجهه.

ثم استدار ناحية "بلاكبول" قائلاً:

- استمر يا "ستيفن" .. إني أصغي لك!
- كيف استطيع أن أتخلص من هذه المرأة يا سيدي؟ هل يمكنك أن تنصحني؟
- تتخلص منها؟! ولكنها زوجتك يا رجل! لقد تزوجتها حتى الموت.. موتك أنت أو موتها هي.
- يجب أن أتخلص منها وإلا .. سأجن، كان من الممكن أن أجن بالفعل، لولا إني أجد بعض السلوى.
- ممن؟
- من أفضل فتاة في العالم يا سيدي؟

وهنا صاحت مسز "سبارسيت" وكأنها أمسكت بلص:

- آه! أنه يود أن يصبح حراً يا سيدي حتى يتسنى له أن يتزوج من امرأة أخرى.

فقال ستيفن:

- أجل، السيدة على حق.. إن الأمر لا يكون مشكلة بالنسبة لرجل غني، فهو حين لا يصادف السعادة في زواجه مع زوجته يمكنهما أن يعيشا في غرف منفصلة في بيت كبير أو حتى يعيشان منفصلين ويتقاسمان دخلهما، بل يمكنهما أحياناً إنهاء زواجهما بالقانون، فهل باستطاعة رجل فقير مثلي أن يفعل أي شيء من هذا، يجب أن أتخلص من تلك المرأة، وكل ما أريد.. وهو أن أعرف .. كيف؟

فرد "باوندرباي" قائلاً:

- لا يمكنك هذا!
- إذا ضربتها.. فهل يعاقبني القانون؟
- بالطبع ستعاقب!
- وإذا تركتها.. فهل يعاقبني القانون؟
- بالتأكيد.
- إذن.. ماذا يحدث لو أني تزوجت من المرأة الأخرى التي أحبها؟

عند سماعها هذه الكلمات أغلقت مسز "سبارسيت" عينيها وكأنها تسمع شيئاً مخزياً.

وقال السيد "باوندرباي" لـ "ستيفن":

- سوف تعاقب.

فقال "ستيفن" يائساً:

- سيد "باوندرباي" .. أليس هناك أي قانون يمكن أن يساعدني.
- الزواج يبقى مدى الحياة يا بلاكبول .. إنه شيء جاد جداً.

ولكن بعض الزيجات لا تستمر مدى الحياة .. أنا أعرف هذا.. لقد قرأت شيئاً كهذا. فبعض الرجال يقتلون زوجاتهم كما أن بعض الزوجات يقتلن أزواجهن.. لن أقتل زوجتي أبداً ولكن لابد أن هناك قانوناً يساعدني.

فقال "باوندرباي":

- هناك قانون، ولكنه ليس لك .. فهو يتكلف الكثير من المال.

فسأل "ستيفن" بهدوء:

- كم؟
- ألف جنيه، ربما ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه!

فشحب وجه "ستيفن" وقال:

- إذن، فأنا كنت محقاً..

ثم استأنف وهو يضغط على مخارج الكلمات **مؤكداً**:

- إن هذا (لخبطة). لا أمل لي بالمرة، سيكون أفضل لي أن أموت.

فرفعت السيدة "سبارسيت" عينيها للسماء..

وقال السيد "باوندرباي":

- إن ما تقوله هراء يا رجل، فقوانين هذا البلد ليست (لخبطة) إنك فقط لا تفهمها. إن عملك يبدأ وينتهي أمام نولك. اسمع يا "ستيفن بلا كبول" .. لقد كنت دائماً .. وحتى الآن، نعم (اليد) وآمل ألا تكون في طريقك لتصبح سيئاً مثل بعض زملائك من الأيدي..

فهز "ستيفن" رأسه وقال:

- أشكرك يا سيدي.. نهارك سعيد.

وبينما هو يسير خارجا قال مردداً:

- إنها (لخبطة).. (لخبطة كبيرة)!!

- 7 -

بينما كان "ستيفن" يعبر الشارع خارج بيت السيد "باوندرباي"، لمست ذراعه امرأة عجوز فالتفتت إليها، منتصبة القامة، رغم كونها كبيرة في السن، وكانت ملابسها أنيقة ونظيفة فيما عدا بعض الغبار العالق بحذائها، ربما من السير في طرقات المدينة.

سألته السيدة برقة:

- من فضلك يا سيدي، ألست خارجاً لتوك من منزل السيد "باوندرباي"؟
- أجل يا مدام..
- عفواً سيدي، ولكن هل تحدثت إلى هذا السيد المهذب اليوم؟
- أجل يا مدام..
- وكيف كان يبدو يا سيدي؟ هل هو بخير .. هل كان كبيراً وجسوراً؟..

بدت السيدة وكان قلبها سيقفز من بين ضلوعها وهي تتحدث.. وهل كان صوته جيداً وقوياً؟

- أجل يا سيدتي.. كان في خير حال و... كما تصفينه تماماً.
- شكراً يا سيدي.. شكراً جزيلاً.

وأخذ "ستيفن" يفكر ويحدث نفسه قائلاً.. لا أنا لم أر هذه السيدة من قبل.. ربما رأيتها في حلم كما أني لا أعتقد أنها تعجبني كثيراً.

ومشت السيدة العجوز إلى جانبه تحدثه وتقول له أنها حضرت إلى "كوكتاون" بالقطار هذا الصباح .. إن لها كوخاً صغير في البلدة التي تبعد خمسين ميلاً عن "كوكتاون"، وأنه يجب عليها أن تسير تسعة أميال على قدميها لتصل إلى محطة القطار.. **ثم أضافت قائلة:**

- وسأمشي تسعة أميال أخرى في طريق عودتي إلى بيتي الليلة.. أليس هذا شيئاً طيباً في مثل سني؟
- طيب جداً، ولكن لا تفعلي هذا كثير يا سيدتي.
- لا، لا أفعل هذا سوى مرة في العام، فأنا أدخر بعض المال على مدار السنة، ثم أسافر وأحضر إلى كوكتاون، فأنا أحب رؤية النبلاء. وكنت أتمنى رؤية السيد باوندرباي اليوم، ولكنني رأيتك أنت.. وأنت رأيته.. إذن يجب أن أكون سعيدة لهذا!

لم يستطع "ستيفن" أن يفهم .. لماذا تتمنى هذه السيدة رؤية السيد "باوندرباي" وهي لم تشرح له بعد هنيهة **قال لها:**

- يجب أن أسرع وألا تأخرت عن العمل. فأنا نساج في مصنع السيد "باوندرباي"..

فنظرت إليه السيدة مليا وقالت:

- أو لست سعيداً هناك؟
- لكل إنسان متاعبه يا سيدتي.
- أجل، تعني أن لديك بعض المشكلات في بيتك أليس هذا ما تعنيه؟
- أحياناً يا سيدتي.
- وهذه المشكلات لا تلاحقك في العمل، أم أنها تؤثر على عملك؟

لا يا سيدتي.

وصلا إلى بوابة المصنع، كانت "الأيدي" تسرع داخلة وكان الجرس يدق.. وبعد هنيهة بدأت الآلات تدور، **قالت السيدة:**

- إنه لجرس جميل.. أنه أجمل جرس سمعته في حياتي، منذ متى وأنت تعمل هنا يا سيدي؟

منذ .. دستة من الأعوام يا سيدتي.

أوه، يجب أن أقبل هذه اليد التي عملت في هذا المصنع العظيم طوال اثنى عشر عاماً.

وبالفعل قبلت السيدة العجوز يد "ستيفن" برغم أنه حاول أن يمنعها، ولكنها فعلت هذا ببساطة وبحب.. لقد جعلت هذه القبلة تبدو وكأنها الشيء الصحيح في المكان والتوقيت الصحيحين .. بعد هذا تركها "ستيفن" ودخل إلى المصنع.

أخذ "ستيفن" يعمل أمام نوله في استغراق طوال نصف ساعة متصلة، وبينما هو يرفع بصره – صدفة – وينظر من خلال النافذة، إذا به يجد المرأة العجوز ما زالت واقفة في الشارع تنظر إلى جدران المصنع الداكنة وإلى سحائب الدخان السوداء وتعبير غريب يكسو وجهها.. كانت أصوات الماكينات تبدو وكأنها موسيقى حماسية جميلة تنساب في أذنيها.. وأخذ "ستيفن" بعد هذا يفكر في هذه المرأة كثيراً هذا المساء.. كما أنه يفكر أيضاً.. في تلك المرأة القابعة في بيته.

أخيراً انتهى اليوم، كانت السماء تمطر حين خرج "ستيفن" من المصنع وأخذ يبحث عن "راشيل"، فقد كان في أمس الحاجة للسلوى والطمأنينة التي لا يستطيع أحد منحه إياها إلا "راشيل"، ولكن.. لابد أن "راشيل" عادت إلى بيتها مبكراً اليوم لأن "ستيفن" لم يرها.

بعد هذا قضى "ستيفن" وقتاً طويلاً وهو يتجول في طرقات المدينة.. تحت المطر، يفكر في حياته الضائعة أيضاً.

منذ سنوات عديدة، حدث "راشيل" عن متاعبه لم يتحدثا عن الزواج – بالطبع – ولكنها كانت ستتزوجه لو أنه كان حراً، ولعلهما – لو كان قد حدث

حب .. احترام متبادل وشرف، ولكنه بدلاً من هذا كان مقيداً بالأغلال من يديه وقدميه إلى امرأة سكيرة قذرة، وراشيل ترى كل صديقاتها وقد تزوجن وأصبح لهن بيوت وعائلات.. بينما هي تتمنى و.. تنتظر "ستيفن".

كانت الساعة قد تعدت الثانية عشرة حينما عاد "ستيفن" إلى غرفته ليجد المصباح مضاء "وراشيل" تجلس على حافة السرير، وكأنما أضاء النور المنبعث من وجهها جنبات عقله المظلمة. **قالت له "راشيل"**:

- كما أنا سعيدة بعودتك أخيراً يا "ستيفن". لقد تأخرت كثيراً.
- كنت أتسكع في طرقات المدينة.
- لقد خمنت هذا. ولكنها ليلة غير ملائمة لمثل هذا، لقد جئت هنا بعد الغداء مباشرة، بعد أن تسلمت رسالة من السيدة صاحبة المتجر، تقول فيها أن شخصاً ما بحاجة إلى المساعدة هنا وبالفعل كانت على حق .. وقد جاء الطبيب أيضاً.. لقد آذت زوجتك نفسها..

ولم يستطع "ستيفن" أن يرفع عينه في وجه "راشيل"، التي استأنفت كلامها:

- جئت لمساعدتها يا "ستيفن"، فقد كنا نعمل سوياً حين كنا صغارا، وكانت صديقتي قبل أن تتزوجها.. بالطبع أنت أكثر عطفاً وكرماً من أن تتركها تموت أو تتألم، أنا أعلم هذا.
- أوه! "راشيل"... "راشيل":

حركت "راشيل" المنضدة إلى حافة السرير، كانت هناك عدة زجاجات عليها، كتب على أحداها باللون الأحمر: "**سم**" قرأ "ستيفن" هذه الكلمة فشحب لونه، بينما سكبت "راشيل" بعضاً من محتويات الزجاجة ومسحت بها على جرح في عنق المرأة **وقالت**:

- يجب أن أفعل هذه مرة ثانية في الساعة الثالثة صباحاً، ولهذا سأبقى حتى هذا الوقت.
- ولكن يجب أن تنالي قسطاً من الراحة يا "راشيل"، فلديك عمل في الغد.
- لا.. بل استرح أنت يا "ستيفن"، فأنا نمت جيداً الليلة الماضية في حين أنك تبدو مجهداً، حاول أن تنام على هذا الكرسي.. هناك، بينما اسهر أنا عليها، تصور أنها لم تعرفني يا "ستيفن"، عندما أفاقت تمتمت بعض الهلوسة ثم راحت في النوم ثانية قال الطبيب أنها ستتحسن غداً.

استقرت عينا ستيفن مرة أخرى فوق أحرف كلمة (**سم**) المكتوبة على الزجاجة، فارتعد واهتز كل جسمه فوقفت "راشيل" تريد أن تتحرك نحوه لتطمئن عليه، ولكن "ستيفن" قال لها:

لا.. اجلسي يا "راشيل".. ابقى حيث أنت بجوار الفراش، حيث رأيتك أولاً.. لا يمكن أبداً أن تكوني أكثر جمالاً من هذا.

كانت ليلة رهيبة.. أخيراً نام "ستيفن"، ولكنه رأى في نومه كابوساً مفزعاً.. رأى أحرف كلمة "سم" وكأنها كتبت من نار، وأبحر "ستيفن" في أعوام المستقبل يبحث عن "راشيل" .. لكنه لم يعد يراها أو يسمعها كان أحرف كلمة (**سم**) تطارده في كل مكان.

وعندما استيقظ "ستيفن" وجد "راشيل" نائمة وهناك فوق المنضدة كانت زجاجة **السم**، تحركت المرأة الملقاة على الفراش، ثم جلست وأدارت عينيها في أرجاء الغرفة، لم تتوقف عند "راشيل" النائمة فوق مقعدها ولكنهما استقرتا في النهاية فوق الركن المظلم القابع فيه "ستيفن"، وكان "ستيفن" يعلم أن هاتين

العينين الشرستين لا تنظران إليه ولكنهما كانتا تبحثان عنه فهي تعرف أنه بالغرفة! لم يكن في عينيهما يتذكره "ستيفن"، فالفتاة التي تزوجها ذات يوم لم يكن لها هذا الوجه المرعب. إنها الآن تبدو وكأنها حيوان يرقد في الفراش.

لاحظت الزجاجة الموجودة فوق المنضدة فمدت إليها يداً معروفة، لم يتحرك "ستيفن" من مكانه، أخذت الزجاجة وفتحتها بأسنانها - "ستيفن" لا يستطيع أن يتحرك أو يتكلم، كان يتساءل.. هل ما زال يحلم؟ أم أن ما يحدث أمامه حقيقة؟ وأخذ صوت ما في داخله يصبح استيقظي يا "راشيل"!! استيقظي وإلا ماتت المرأة!

رفعت المرأة زجاجة السم ببطء نحو فمها.. لحظة أخرى ولن يكون بمقدور إنسان مساعدتها ولكن في اللحظة التالية.. انطلقت صرخة من "راشيل" وارتمت على الفراش تحاول أن تأخذ الزجاجة من المرأة التي قاومت من أجل الاحتفاظ بها وشدت شعر "راشيل" ولكن "راشيل" استطاعت أن تنتزع منها الزجاجة.

اندفع "ستيفن" للفراش **وهو يصيح**:

- هل أنا متيقظ أم حالم؟ ماذا حدث يا "راشيل"؟
- كل شيء على ما يرام الآن.. يبدو إني غفوت للحظات.

رأى "ستيفن" وجه "راشيل" الشاحب وشعرها المنساب، ورأى آثار أظافر المرأة على خديها، فعرف أنه كان متيقظاً، صبت "راشيل" بعضاً مما في الزجاجة فوق قطعة قماش ومسحت بلطف رقبة المرأة وهي **تقول:**

الساعة الآن الثالثة، أنا سعيدة أني مكثت معكما.. أنها بخير الآن وقد أديت عملي وهي لن تحتاج لما بقى في هذه الزجاجة..

وذهبت نحو المدفأة وألقت بما في الزجاجة فوق الرماد البارد ثم **قالت**:

سأعود لبيتي الآن يا "ستيفن"

فقال "ستيفن":

- سوف آتي معك يا راشيل، لا أحب أن أتركك تذهبين وحدك.
- لا، بل انتظر معها.. سأكون بخير.
- ألا تخشين من تركي وحدي معها؟
- لا يا "ستيفن"
- آه.. لقد حملتني من جانب الشر إلى جانب الخير.. إنني أود أن أصبح مثلك.. لقد أنقذتني يا "راشيل"، عندما رأيت **السم** قلت في نفسي: (ماذا يمكنني أن أفعل لنفسي أو لها).

ووضعت "راشيل" يدها فوق فمه لتوقف هذه الكلمات، فأخذها في يديه وقال:

- لقد سهرت بجوار فراشها.. سوف تكونين دائماً بجانبها يا "راشيل" .. في أفكاري.. ستكونين دائما بجانبي أنا أيضاً.

ثم خرج معها إلى الشارع، **وقالت له في صوت منكسر**:

- سعد مساؤك.

كانت الامطار قد توقفت وكانت النجوم تلمع في السماء، بينما قال "ستيفن" في نفسه:

- إن "راشيل" هي نجمة حياتي المضيئة!

- 8 -

إن الزمان نساج ماهر، له أنوال أفضل من كل أنوال مصنع، "جوزيه باوندرباي" ففي عامين – أو أقل – نسج من "لويزا جرادجريند" امرأة بالغة، وجعل من "توماس" الابن" موظفاً في بنك السيد "باوندرباي"، وأيضاً جعل منه ضيفاً دائماً على بيت السيد "باوندرباي"، ربما كانت حياة موظف البنك ليست بالحياة السهلة.. ولكن على أي حال- بعيداً عن البيت - كان "توماس" يجد الكثير من الوقت ليرفه عن نفسه.

وأيضاً صنع الزمان من هذا النسيج الجميل"سيسي جوب" كائناً بديعاً ورقيقاً، وإن كان – الزمان - لسوء الحظ لم يستطع أن يغير كثيراً في عقل "سيسي" .. وبالطبع خاب أمل السيد "جرادجريند" لهذا، وإن كان حقيقة يحب "سيسي" لدرجة منعته من أن يغضب منها لعدم قدرتها على استيعاب الحقائق.

أما السيد "جرادجريند" نفسه فقد أصبح عضواً في البرلمان عن مدينة **كوكتاون**، "عضو حقائق الواقع" كما كان يحب أن يعتقد.

وفي يوم من الأيام قال لـ "سيسي":

- إن المدرسة لا تساعدك كثيراً يا "جوب"، وأرى أنه من الأفضل أن تتركيها.

وأجابت الفتاة بقولها:

- أجل يا سيدي، أخشى أن هذا صحيح.
- لقد تعلمت القليل من الحقائق والمعارف هناك.
- هذا صحيح يا سيدي، ولكني حاولت.. حاولت بكل قوتي.
- أجل يا "جوب" لقد كنت أراقبك عن كثب، وأعرف أنك حاولت، ولكن يبدو أنك بدأت متأخرة – وتلك هي المشكلة.

فقالت "سيسي"، بينما دموعها تنساب على خديها:

- أنا آسفة يا سيدي

فقال "جرادجريند":

- لا تبكي يا "جوب" .. لا تبكي، فأنا لست متضرراً منك، فأنت شابة رقيقة ومحبوبة وطيبة القلب أيضاً، وهذا يكفي بالتأكيد.

فانحنت "سيسي" في أدب جم **وقالت**:

- شكرا لك يا سيدي – شكراً جزيلاً.
- لقد كنت نعم المعين لمسز "جرادجريند"، وكنت كذلكم على ما اعتقد بالنسبة للآنسة "لويزا" وأمل هو أن تكوني سعيدة معنا هنا.
- آه.. أجل.. بالتأكيد يا سيدي

في هذه اللحظة دخلت "لويزا" إلى حجرة الدرس فاتجه إليها أبوها وأخذ يدها في يده **وقال**:

- يبدو إني أصبحت افتقدك يا عزيزتي.. لقد أصبحت .. امرأة ناضجة! أليس كذلك!

كانت إجابة "لويزا" الأولى هي نظرة فاحصة في وجه أبيها.. ثم نظرت إلى أسفل **وقالت**:

- أجل يا أبي.
- يا عزيزتي، إن لي معك حديثاً جدياً، فهلا أتيت إلى مكتبي غداً بعد الإفطار.
- حاضر يا أبي.
- إن لدي مناقشة هامة هذا المساء.. لهذا تصبحين على خير يا عزيزتي فستكونين نائمة حينما أعود.

ثم طبع قبلة كبيرة على خدها.. فردت عليه **قائلة**:

- مساء سعيد يا أبي.

بعد حوالي ساعة وصل "توم" إلى "ستون لودج".. كان سعيداً إن وجد أخته وحدها في حجرة المدرس، **وقد بادرته قائلة**:

- أوه.. "توم" لقد مضى وقت طويل إن كنت هنا آخر مرة.
- حسنا "لوو".. إن عندي أشياء كثيرة تشغلني في المساء وباوندرباي العجوز يغرقني في العمل طوال النهار.. إنه يصبح رجلاً صعباً في بعض الأحيان.. عندها أجد لزاماً على أن أذكره بك!.. خبريني يا "لوو" هل تحدث إليك أبي في شيء؟.. الليلة أو أمس؟
- لا يا توم، ولكنه كان يود .. وسيحدثني غداً صباحاً.
- أه! هذا هو أذن.. هل تعلمين أين هو الليلة؟
- لا..
- سوف أخبرك، أنه مع السيد باوندرباي أنهما يتحدثان.. في المصرف. ولماذا هما في المصرف؟ سوف أخبرك أيضاً.. حتى لا تسمعهما مسز سبارسيت".

واحتضن توم أخته وقربها إليه ثم ثقال لها في استعطاف:

أنك تحبينني يا "لوو" أليس كذلك؟

- بالطبع يا "توم" ولكن لماذا لا تأتي لتراني؟
- إني أفكر فيك دائماً يا "لوو".. من الممكن أن نكون معاً دائماً.. ربما ستساعدينني كثيراً إذا قررت أن توافقي أبي.. سوف أكون أسعد شباب كوكتاون حظاً!

كانت لويزا تحدق في نار المدفئة ولم يستطع أخوها أن يستشف أي شيء من وجهها، فاحتضنها بقوة وطبع قبلة على خدها.. فقبلته بدورها، ولكنها ظلت تحملق في النار.

فاستأنف "توم" حديثه قائلاً:

- لقد جئت لأخبرك، لكني أعتقد أنك قد خمنت الأمر بالفعل.. أنا مضطر لأن أتركك الآن يا "لوو" فعندي حفلة الليلة.. مع بعض موظفي المصرف.. أنت لن تنسى حبك لي.. أليس كذلك..؟
- لا يا "توم".. لن أنسى.
- أنت فتاة رائعة! إلى اللقاء يا "لوو".
- مساء سعيد يا "توم"

وأخذت "لويزا" تتابع أخاها وهو يسرع مبتعداً.

أضاءت نيران مصانع كوكتاون سماء الليل بضوء أحمر، حاولت "لويزا" أن تجد شيئاً – أولاً – في نار المدفئة والآن نبحث في السماء الحمراء، لقد جعل منها الزمان – النساج – امرأة ناضجة فيا ترى ماذا ينسج لها المستقبل؟

جاءتها الإجابة بعد الإفطار في الصباح التالي قال لها أبوها:

- عزيزتي "لويزا".. أنا مسرور جداً بك وفخور أيضاً بالنتائج التي حققتها في تعليمك، لقد خدمتك الحقائق جيداً! فأنا لم اسمح مطلقاً للخيالات الغبية أن نحل في هذا البيت.. إن التصورات التافهة لم تسلب حياتك ستوافقينني الآن..

وانتظر "جرادجريند" برهة.. علها تقول شيئاً ولكن ظلت "لويزا" ظلت صامتة. **فاستأنف كلامه:**

- .. عزيزتي.. إن سيداً مهذباً قد سألني إذا كان في إمكانه أن يقترن بك...

وانتظر "جرادجريند" ثانية، لكنها لم تتفوه بكلمة فاندهش كثيراً حتى إنه كرر **ما قال:**

إذا كان يمكن أن يقترن بك!

فقالت:

- لقد سمعت يا أبي.. إني مصغية.
- حسنا يا عزيزتي، أليس عندك ما تقولين؟
- لا .. حتى الآن يا أبي. من فضلك أخبرني بكل شيء أولاً.

لم يبد على السيد "جرادجريند" الارتياح، فالتقط مسطرة من مكتبه وأخذ يتأملها ثم **قال**:

- نعم بالطبع.. ها هي الحقائق كلها يا ابنتي أن السيد "باوندرباي" يقول:
- أنه كان يلاحظك.. وأنت تكبرين – بسرور بالغ.. كان دائما يتمنى أن يتقدم لخطبتك يوماً وهو يعتقد أن هذا اليوم قد جاء.. وهو يتمنى أن تقبليه. هذه هي الرسالة التي أحملها إليك.

خيم الصمت على الغرفة للحظات ثم **قالت:**

- أبي هل تعتقد أنني أحب السيد "باوندرباي" ؟
- فشعر السيد "جرادجريند" بعدم ارتياح وقلق .. **ثم قال:**
- طفلتي .. إنني حقيقة لا أعلم!
- أبي هل تريد مني أن أحب السيد "باوندرباي"؟
- لا يا حبيبتي أنا لا أريد هذا بالتحديد..

- وهل يريد مني السيد "باوندرباي" أن أحبه.
- للحق يا ابنتي .. إنه من الصعب الإجابة على سؤالك هذا.
- هل من الصعب الإجابة بنعم أو لا يا أبي.

بل من الصعب أن نقول ماذا يعني (الحب)يا ابنتي؟ فأنت والسيد "باوندرباي" تهتمان بالحقائق لا بعالم الأوهام .. إن الشباب الأحمق قد يتحدث عن الحب، لكني لا أستطيع أن أربط بين هذه الكلمة وبين عرض السيد "باوندرباي" للزواج منك.

- إذن ماذا يجب أن استعمل بدلاً من كلمة الحب يا أبي؟

الحقائق يا عزيزتي.. استعمل كل الحقائق إنك في العشرين من عمرك، والسيد "باوندرباي" ربما كان في الخمسين، الفرق في السن بينكما ليس مهما فانكما متكافئان في الوضع الاجتماعي وفي الثروة، وفي معظم الزيجات يكون الرجل أكبر كثيراً من المرأة.. هذا الوضع صحيح في انجلترا وفي الهند وفي الصين وفي كل مكان.

ظلت "لويزا" على هدوئها التام وقالت:

- أبي هل تعتقد أن هذه الحقائق يمكنها أن تحل محل الحب؟
- بالتأكيد يا عزيزتي! السيد "باوندرباي" طلب يدك للزواج، هذه حقيقة، والحقيقة الهامة الأخرى هي.. هل تقبلينه أم لا؟.. أنه شيء في غاية البساطة.

فقالت "لويزا" ببطء:

- هلا أقبله؟

كانت "لويزا" ترتعش.. تمنت أن تلقي بنفسها بين ذراعي أبيها وتخبره بمكنون قلبها، ولكن "توماس جرادجريند" لم يلاحظ شيئاً فقد كان هناك

جدار عال بين عقله وبين المشاعر العادية، ومرت اللحظة كما مرت غيرها من اللحظات وفاتت الفرصة.

ظلت "لويزا" صامتة لفترة طويلة حتى سألها أبوها:

- فيم تفكرين يا عزيزتي؟

فأجابت:

- إن الحياة قصيرة جداً يا أبي.
- حسنا .. الناس يعيشون الآن أطول بكثير مما كانوا يعيشون منذ خمسين عاماً
- إني أتحدث عن حياتي أنا يا أبي.
- دون شك.. سوف تعيشين طويلاً مثل معظم الناس.
- إني أريد أن أفعل شيئاً طيباً في حياتي.. لكن .. ربما هذا لا يهم فالسيد "باوندرباي" يريد أن يتزوجني.. وأنا لا أحبه، فإذا كان يفهم ذلك.. فسأقبله، يجب أن يأخذني كما أنا.. أخبره بهذا يا أبي أرجوك .. بالضبط كما قلته.
- سوف أخبره.. ومن الواجب أن يقال كلامك كما قلته بالضبط. هل لديك أي فكرة لتحديد موعد الزواج؟
- لا يا أبي. لا يهم.

نظر إليها أبوها بحدة ثم قال:

- "لويزا" .. ربما كان يجب أن أسألك سؤالاً آخر .. هل طلب أي سيد مهذب آخر منك الزواج؟

فصاحت في دهشة:

- أبي! من تراه يسألني؟! وأي إنسان قابلت ؟! وأين كنت حين قابلني؟ وأية تجارب تلك التي مر بها قلبي؟!

- كان من واجبي أن أسأل يا "لويزا".
- أنا لا أعرف أي شيء عن آمال المرأة ورغباتها ولا .. عن الحب.
- هذا صحيح يا عزيزتي، أنا سعيد لسماع هذا.

الأطفال يتمنون أنم يصبحوا أمهات وآباء ولكني لم أفعل، لقد دربتني جيداً يا أبي بحيث لا أملك أبداً قلب طفلة.

بالتأكيد ياعزيزتي! إن تربيتك تبعث علي السعادة واليوم أحصل على المكافأة، فالسيد "باوندرباي" رجل عظيم، والآن.. دعينا نخبر والدتك.

بالطبع، كان السيد "جرادجريند" يأمل أن تكون "لويزا" سعيدة، كانت "سيسي" جالسة بجوار فراش السيدة المريضة.. حين سمعت الخبر.. نظرت بحزن إلى "لويزا"، كان هناك حب عظيم يطل من عيني "سيسي" ولكن.. كان هناك أيضاً شك كبير وكثير من الشفقة، "لويزا" أحست بهذا ومنذ تلك اللحظة تغيرت مشاعرها تجاه "سيسي" فأصبحت صامتة وباردة، ولم تعد منذ هذه اللحظة صديقة "سيسي".. إنها حتى لم تعد تتحدث إليها.

- 9 -

كان السيد "باوندرباي" يخشى- إلى حد ما- أن يخبر مسز "سبارسيت" بأمر زواجه. كان يتساءل في نفسه "ماذا ترى سيكون رد فعلها" ربما تترك المنزل في الحال أو.. ربما لن تتحرك بوصة واحدة من مكانها، ربما – كما كان يعتقد – تحطم قلبها أو.. ربما حطمت أثاث البيت.

أخيراً قرر أن يفاتحها في هذا الأمر **فقال لها**:

- مسز "سبارسيت".. سيدتي، إنك سيدة عظيمة.. كريمة المحتد، كما أنك سيدة حكيمة أيضاً.
- يسعدني كثيراً أن يكون هذا هو رأيك يا سيدي.
- الآن .. سيدتي، سوف أخبرك بشيء قد يدهشك.. فأنا أزمع الزواج من ابنة "توم جرادجريند".
- حقاً يا سيدي؟! حسنا.. أتمنى لك السعادة يا سيد "باوندرباي". آه.. أجل أتمنى هذا بالفعل. أتمنى من كل قلبي يا سيدي أن تحيا في سعادة دائمة.

كانت تتكلم بكبرياء شامخة وأيضاً.. بأسف شديد! فأجابها "باوندرباي" **بأدب جم:**

- أشكرك.. مدام، أنا أيضاً أتمنى هذا، ربما كنت لا تودين البقاء هنا بعد زواجي، ولكننا بالطبع نرحب بك معنا

فهزت السيدة رأسها في كبرياء **وقالت**:

- لا يا سيدي... ليس في إمكاني البقاء..

فقال "باوندرباي":

- إذن هناك شقة كبيرة فوق المصرف – مدام .

وإذا قبلت العيش هناك فأعتقد أنك ستضيفين حيثية لمكان العمل وسأدفع لك ثمن راتبك الآن و...

فقاطعته مسز "سبارسيت" قائلة:

- أجل .. أجل، لا حاجة بنا لمناقشة التفاصيل إن فكرة الشقة والسكن فوق المصرف تبدو جيدة، إذا كان مركزي سيظل محفوظاً كما هو الآن.
- أوه بالتأكيد يا سيدتي.. فما كان يمكنني أن اقترح أي شيء أقل على سيدة نبيلة لها مثل أصلك الرفيع.. بالطبع أنا رجل من الشارع، ولكنك أنت تعودت على الرفاهية!
- أجل يا سيدي أنك بالغ العطف.

إن الحجرات فوق المصرف مريحة جداً، ويمكنك أن تستخدمي امرأة لتنظيف المكان، وفي المساء هناك رجل لحراسة المكاتب، وبالتالي سيقوم بحراستك وخدمتك أيضا.

لا تضف شيئاً يا سيد "باوندرباي"، فأنا أقبل عرضك شاكرة..

ثم أضافت:

- إن الآنسة "جرادجريند" ستكون ما تتمنى و.. تستحق يا سيدي.

فقال "باوندرباي"بضيق:

- أجل .. أجل .. آمل هذا

بعد هذا الحديث، أصبحت مسز "سبارسيت" أكثر عطفاً وأكثر أدباً مع السيد "باوندرباي" .. أنه في طريقه إلى أن يتزوج الزوجة التي يريدها.. ويستحقها، لكن نظرة الأسف لم تفارق وجه مسز "سبارسيت"، هذه النظرة كانت تثير الحمرة والعرق البارد في وجه السيد "باوندرباي".

حدد موعد الزفاف وأصبح السيد "باوندرباي" يذهب إلى (ستون لودج) كل مساء محملاً بالهدايا الثمينة .. الفساتين والأحذية المصنوعة خصيصاً لـ"لويزا"، واتفق السيد "باوندرباي" والسيد "جرادجريند" على الدوطة (المهر)

.. كان ما يتعلق بالزواج عبارة عن اتفاقات رجال اعمال و .. حقائق الناس العاديون يقولون – أحياناً – أن ساعات الحب تمر بسرعة شديدة أو .. أحياناً ببطء شديد، ولكن .. في .. "ستون لودج" اليوم أربع وعشرون ساعة تماماً، والساعة ستون دقيقة بالضبط.

أخيراً، جاء اليوم العظيم، "جوزية باوندرباي " أغنى أغنياء **كوكتاون** تزوج "لويزا" ابنة "توماس جرادجريند" عضو البرلمان. وتم الزواج في أكبر كنيسة **بكوكتاون** ، وبعد المراسم والطقوس تناول الضيوف طعام الإفطار في "ستون لودج" وبعد الإفطار ألقى السيد "باوندرباي" كلمة قال فيها:

- سيداتي وسادتي، أنا "جوزية باوندرباي" من **(كوكتاون)** وأنه ليشرفني ويشرف زوجتي أن ترحب بكم هنا. أنتم جميعاً تعرفونني. تعرفون أني بدأت حياتي في الشوارع وعلى هذا فلا تتوقعوا خطاباً بليغاً، صديقي ووالد زوجتي "توم جرادجريند" عضو في البرلمان وهو الرجل الذي يمكنه أن يلقي عليكم خطاباً بليغاً.
- إني أشعر بالفخر اليوم .. فطفل الشوارع القذر تزوج ابنة "جرادجريند"! لقد رأيت السيدة في نموها وأعتقد أنها تستحق أن تكون زوجتي. وفي نفس الوقت فأنتم توافقون على أني استحقها أيضا.
- شكراً سيداتي وسادتي لكل أمنياتكم الطيبة لنا .. يمكنني أن أرى العديد من الضيوف غير المتزوجين حول هذه المائدة، وها هي أمنياتي لهم.. أتمنى لكل رجل ان يجد زوجه مثل زوجتي واتمنى لكل امرأة أن تجد زوجاً مثلي!"

وبعد ساعة. أصبح السيد والسيدة "باوندرباي" على استعداد للرحيل لقضاء شهر العسل .. وسوف يسافرون إلى فرنسا، فالسيد "باوندرباي" كان

ينوي دائما أن يزور مصانع النسيج في **ليون**. ولهذا .. سوف يذهبان إلى **ليون** لقضاء شهر العسل!

وفي طريقها قابلت "لويزا" أخاها على درجات السلم، فهمس لها قائلاً:

- أنت أحسن أخت في العالم..

فوضعت ذراعيها حوله ولكنها لم تستطع الكلام.

فقال هو:

- إن "باوندرباي" العجوز قد استعد .. يجب أن تذهبي الآن .. إلى اللقاء سوف أكون في انتظارك حين عودتك.. أوه لوو.. إنني أسعد شباب **كوكتاون** بالقطع، أليست الحياة رائعة!

- 10 -

كان يوم قائظاً في **كوكتاون**، الكل يعرف أنه الصيف، طبعا ليس لسطوع الشمس أو للظلال التي تلقيها على الشوارع، فالناس في **كوكتاون** لا يرون الشمس كثيرا، لأنها دائماً تختفي خلف سجن الدخان المنبعثة من مصانع المدينة ولكن الكل يعرف أنه الصيف لأنه شهر يوليو ولأن المصانع أصبحت شديدة الحرارة.

مر عام منذ زواج "باوندرباي" بـ"لويزا". وطوال هذا الوقت لم تحرر مسز "سبارسيت باوندرباي" من نظرات الشفقة التي كانت تلاحقه بها، وفي هذا المساء كانت تجلس في النافذة المفضلة عندها - فلشقتها نافذتان تطلان على الشارع الذي يقع فيه المصرف – ولهذا تستطيع أن تشاهد ما يحدث في المدينة. وفي كل صباح تراقب السيد "باوندرباي" وهو يعبر الشارع إلى مكتبه، وفي كل مساء تراه حينما يعود إلى بيته.. كانت ترى أشياء كثيرة أخرى.

في المساء حين يخيم الليل تصبح السيدة "سبارسيت" ملكة المصرف، كانت تعتقد أنها هناك لتحرس المكاتب وخزانة الصرف. معظم أموال **كوكتاون** كانت في هذه الخزانة بجدرانها الحديدية وأقفالها الثلاثة كما كانت مسز "سبارسيت" رئيسة للسيدة العجوز التي تطبخ وتنظف .. بالإضافة إلى أنها ترأس الحارس الشاب الذي يرقد كل ليلة على فراشه الموضوع أمام باب الخزانة.

في هذا المساء شاهدت السيد "باوندرباي" وهو يذهب، وبعد عشر دقائق انصرف موظفو المصرف ثم أحضر الحارس أناء الشاي للملكة..

- شكرا! يا "بيتزر"!
- الشكر لك.. سيدتي.

هكذا أجاب الحارس على مسز "سبارسيت"، كان شاباً ذا شعر فاتح اللون ووجه شاحب لم يتغير كثيراً في الخمس سنوات الماضية، ما زال يملك ذاكرة عظيمة في حفظ الحقائق والمعلومات، ولم ينس مطلقاً البنت رقم (20). **سألته مسز "سبارسيت":**

- هل أغلقت كل الأبواب والنوافذ يا "بيترز"؟
- أجل.. سيدتي!
- لم يكن لدى مسز "سبارسيت" الكثير من الزوار لهذا كانت تستمتع بالحديث مع الحارس كل أمسية. **وبينما هي تصب الشاي سألته قائلة:**
- ماذا عندك من الأخبار اليوم؟
- لا شيء يا سيدتي غير أن العمال سببوا المتاعب ثانية، ولكن هذا ليس جديداً أليس كذلك؟
- وماذا فعلوا اليوم يا "بيتزر"؟
- حسناً سيدتي، لقد تحدثوا وتجادلوا بالطبع، أنهم يحاولون إنشاء نقابة لعمال النسيج.
- إن هذا سيء، يجب على السيد "باوندرباي" وأصدقائه أن يمنعوا هذه السخافات في الحال، هذه "الأيدي" يجب إخضاعها، لن تكون هناك نقابات عمال في **كوكتاون!**
- أنت على حق تماماً .. سيدتي!

أمل أن يكون سلوك موظفي المصرف جيداً وأنهم يعملون بجد .. هل يفعلون هذا يا "بيتزر".

كان "بيتزر" يعمل أيضاً في المصرف أثناء النهار، وكان واجبه هو أن يحمل الأخبار للسيد "باوندرباي" فهو يستمع لحديث عملاء المصرف كما يستمع

لأحاديث الموظفين .. فيعرف الكثير من الأسرار والتي يحملها أولاً بأول إلى "باوندرباي". وعلى عكس "سيسي جوب" فان "بيتزر" قد تعلم حقائق المعرفة التي درسها في المدرسة جيداً .. ولم تكن هناك أية مشاعر إنسانية تعتمل في نفسه أو خيالات وهمية تسكن عقله. كان شاباً يفخر السيد "باوندرباي" والسيد "جرادجريند" بحسن تربيته وتعليمه.

وقبل أن يجيب على سؤال مسز "سبارسيت" الأخير، صمت برهة ثم **قال:**

- أجل .. يا سيدتي، سلوكهم جيداً جداً، فيما عدا .. السيد المهذب يا سيدتي.
- آه.. تقصد.
- السيد "جرادجريند" الابن يا سيدتي، فإن بعض الشكوك تساورني نحوه يا سيدتي.
- آوه "بيتزر"، أنا لا أحب أن أسمع أسماء، لقد نبهت عليك من قبل، أليس كذلك؟
- حاضر سيدتي، إني أسف!
- تذكر أرجوك، إنني مسئولة عن المصرف في الليل. إن السيد "باوندرباي" قد عرف لي ولعائلتي- مشكوراً – قدرنا الاجتماعي، لهذا يجب أن أكون أمينة معه، ولا يمكنني أن أكون كذلك إذا استمعت إلى أسماء تكون – للأسف – مرتبطة به. لهذا أرجوك يا "بيتزر" .. استعمل كلمة (الشخص)..!

توجه "بيتزر" إلى النافذة ووقف أمامها وأخذ في الحديث:

- أجل يا سيدتي، حسنا، إذن الشخص الشاب يسلك سلوكاً غير طيب، وهو أيضاً لا يعمل بجد.. أنه لا يعمل بجد إطلاقاً منذ مجيئه إلى

المصرف، فهو كسلان جداً، كما أنه ينفق الكثير ويتعاطي الخمر بشراهة ولولا أنه له صلة قرابة في المصرف لما كان قد عين فيه أبداً.

- أه .. هم م م
- كل ما أتمناه يا سيدتي.. هو ألا ينفق هذا الشخص أموال قريبه، أننا يجب أن نشعر بالشفقة على السيد المهذب.. السيد المهذب الذي عين هذا الشخص، يا سيدتي.
- أجل يا "بيتزر"، لقد كنت أشفق عليه دائماً، وسأشفق عليه أبداً.
- إن الشخص الشاب تعود أن يبعثر أمواله.. يا سيدتي!
- كان يجب عليه أن يحذو حذوك يا "بيتزر".
- أشكرك يا سيدتي، إنني أدخر جزءاً كبيراً من راتبي.. ولكنه لا يدخر شيئاً.

وفجأة استدار "بيتزر" من أمام النافذة وتوجه بالكلام لمسز "سبارسيت":

- هناك سيد مهذب يقف في الشارع. كان ينظر إلى أعلى لدقيقة أو دقيقتين، وهو الآن جاء إلى الباب.

وفي اللحظة التالية سمعوا طرقاً على الباب، فتساءلت مسز "سبارسيت" **قائلة:**

- من عساه يكون؟ لقد تأخر كثيراً عن موعد المصرف، ولكني المسئولة الآن، ولهذا.. ربما كان يجب على أن أقابله، افتح له من فضلك يا "بيتزر".

وبعد دقيقة دخل "بيتزر" ومعه الزائر وقال:

- هذا السيد يود مقابلتك يا سيدتي.

ودخل خلف "بيتزر" شاب أنيق جداً يسير بلا مبالاة ويتصرف بلا مبالاة، وقد قررت مسز "سبارسيت" حال أن رأته أنه .. (جنتلمان).

ثم تكلم الرجل:

- سيدتي .. اسمحي لي من فضلك.

قال الرجل هذا بينما كانت مسز "سبارسيت" تكون منه صورة في عقلها.."رجل في الخامسة والثلاثين من عمره. له وجه مشرق وقسمات مليحة.. أسنان قوية.. صوت جميل وعينان جسورتان"، **ثم قالت:**

تفضل بالجلوس يا سيدي.

فقال الضيف:

- شكراً..
- ولكنه لم يجلس بل وقف بالقرب من المنضدة **وقال:**
- لقد تركت خادمي في محطة القطار مع أمتعتي، أن هذه المدينة غريبة حقاً. هل تمانعين في الإجابة على سؤال يا سيدتي، هل هي مظلمة هكذا دائماً؟!
- إنها عادة ما تكون أكثر إظلاماً..
- لا يمكن!! عفواً.. اسمحي لي .. هل كنت تعيشين هنا باستمرار؟
- لا يا سيدي، فقط منذ وفاة زوجي، قبل هذا، كنا نعيش في ظروف مختلفة تماماً.
- ألم تملي العيش في هذا المكان؟
- إنني رهينة لواقع مؤسف يا سيدي، ولكني تعودت عليه.
- ربما كان هذا من الحكمة..
- هل لي في سؤال يا سيدي؟.. لماذا أردت رؤيتي؟

- بالطبع، أشكرك لتذكيري، إنني أحمل رسالة للسيد "باوندرباي" .. تقدمني له، لقد سألت رجلاً عن البيت الذي يعيش فيه السيد "باوندرباي" فأحضرني إلى هنا، ربما كان يظن أن المصرف ما زال مفتوحاً، إن السيد "باوندرباي" لا يعيش هنا.. أم تراه يسكن هنا؟
- لا يا سيدي، أنه لا يسكن هنا.
- شكراً لك.

وأراح السيد إحدى رجليه على زاوية المنضدة **وقال ببطء:**

لن أسلم له الرسالة هذا المساء، ولكن على الأقل كان يجب أن أعرف مكان المصرف بالتأكيد أعتقد أنك تعرفين أين يعيش السيد "باوندرباي"، سأكون سعيداً لو أخبرتني.

لم تجب مسز "سبارسيت" وسكنت لبرهة، فرفع السيد المهذب رجله من على زاوية المنضدة وانحنى عليها **وقال:**

- لابد أنك تتساءلين عمن أكون.

ثم أخرج رسالة من جيبه **قائلاً:**

- هذه الرسالة معنونة للسيد "باوندرباي"، أنها من "جرادجريند" عضو البرلمان، لقد تعرفت عليه في لندن.

فتحركت مسز "سبارسيت" نحو النافذة وأشارت بيدها تبين للزائر مكان بيت السيد "باوندرباي"، **فقال لها السيد المهذب:**

- شكراً يا سيدتي.. أعتقد أنك تعرفين السيد "باوندرباي" جيداً.
- أجل يا سيدي.. لقد عرفته لعشرة أعوام.
- وقت طويل! لقد تزوج ابنة "جرادجريند" ..أليس كذلك؟

- بلى.. لقد حصل على هذا الشرف يا سيدي.
- حكي لي "جرادجريند" عنها، أنها امرأة ذات عقل مدهش، ذكية جداً وصعبة المراس.. آه! إنك تبتسمين يا سيدتي! ألا توافقين على هذا الكلام؟ كم عمر السيدة؟ خمسة وثلاثون و .. أربعون عاماً؟

فضحكت مسز "سبارسيت" **وقالت:**

- إنها لا تزال طفلة، لم تكن قد بلغت العشرين حين تزوجت.

حسناً! إن هذا يدهشني! لقد جهزت نفسي لمقابلة امرأة كبيرة حكيمة في بيت السيد "باوندرباي". اشكر لك تصحيح فكرتي، وأشكرك أيضاً على معونتك.. والآن يجب أن أرحل .. سعد مساؤك.

وهكذا رحل السيد المهذب، ووقف مسز "سبارسيت" تراقبه وهو يتهادى في الطريق. وبعد دقيقة جاء "بيتزر" ليأخذ أدوات الشاي **وقال:**

- هذا السيد ينفق الكثير من المال على هندامه.
- حقاً.. كانت ملابسه جميلة جداً.
- ولكنها لا تستحق المال يا سيدتي.. ربما هذا السيد لا يشقى كثيراً في سبيل الحصول على المال.

جلست مسز سبارسيت أمام النافذة لساعتين أو ربما ثلاث ساعات، لم تشعل المصباح حتى حين أصبحت الغرفة مظلمة.

كانت نيران مصانع **كوكتاون** تضئ السماء بضوء أحمر، أخيراً وقفت وتوجهت إلى فراشها وصوت من داخلها **يقول:**

- أوه .. إنك أحمق
- من هو هذا الاحمق.. لم تخبرنا مسز "سبارسيت"!

- 11 -

"جيمس هارتهاوس" .. هذا هو اسم زائر مسز "سبارسيت" .. أصدقاؤه يدعونه "جيم". و"جيم" هو الاخ الاصغر لأحد أعضاء البرلمان الذي كان صديقاً حميماً لمستر "جرادجريند".

عمل "جيم هارتهاوس" لفترة كضابط في الجيش، ولكن كثرة الواجبات والالتزامات العسكرية أتعبته ولهذا ترك الجيش، ثم خدم الحكومة البريطانية كموظف يتبعها في بعض البلاد الأجنبية ولكن العمل كان شاقاً فعاد "جيم" إلى انجلترا، ثم سافر بعد هذا إلى الشرق لكن الطقس، كان حاراً جداً بالنسبة له فعاد إلى الوطن ثانية.. لقد اشتغل بالكثير من الأعمال لكن أيا منها لم يعجبه، وفي يوم من الأيام قال له أخوه عضو البرلمان:

- "جيم" إن رجال الواقع الصعب يبحثون عن رجال أكفاء، لماذا لا تهتم بدراسة هذا الموضوع؟

فأجاب "جيم":

- هذه فكرة طيبة على الأقل.. ليس عندي خير منها في الوقت الحالي.

وعلى هذا أعطي الأخ الأكبر "جيم" كتاباً أو كتابين. واستغرق "جيم" في دراسة الحقائق، وفي نهاية الأسبوع شعر أنه أصبح ماهراً جداً.

بعد هذا قابل أخوه السيد"جرادجريند" في البرلمان **وقال له:**

- "توم" .. إذا كنت تريد رجل حقائق فقابل أخي، إنه يستطيع أن يدبج خطباً رائعة وله طريقة ذكية.

وبعد هذا بقليل وصل السيد "جيمس هارتهاوس" إلى **كوكتاون** .. قابل مسز "سبارسيت" وأخذ غرفة في الفندق، وفي الصباح التالي أرسل خادمه إلى منزل السيد "باوندرباي" حيث سلم الخادم رسالة السيد "جرادجريند" إلى:

السيد "جوزيه باوندرباي" – كوكتاون.

بخصوص تقديم السيد "جيمس هارتهاوس" من "توماس جرادجريند".

وبعد ساعة وصل السيد "باوندرباي" للفندق وكان "جيم" ينظر حزيناً من نافذة غرفة الطعام يحدث نفسه قائلاً: "الحقائق ليست شيئاً مثيراً، خصوصاً في **كوكتاون** فقرر أن يستغرق في شيء آخر، عندما دخل الخادم محضرا السيد "باوندرباي" الذي **قال لـ"جيم"**:

- اسمي يا سيدي .. هو "جوزيه باوندرباي" من **كوكتاون**..
- آه.. هذا شيء يدعو للسرور

هكذا رد "هارتهاوس" وإن كان لا يبدو مسروراً على الإطلاق. واستأنف السيد "باوندرباي" حديثه **قائلاً:**

- حسناً يا سيدي إن **كوكتاون** ستكون بالتأكيد مكاناً غريباً بالنسبة لك، لهذا .. إذا أصغيت إلى.. أو حتى إذا لم تصغ فسأحكي لك شيئاً عنها.
- أوه.. أرجوك..

إن سكان **لندن** لا يحبون مدينتنا عادة لأنها مظلمة ومملوءة بالدخان ولكن.. الدخان هو طعامنا وشرابنا يا سيد "هارتهاوس" وهو غير ضار على الإطلاق بل على العكس! إنه مفيد – في الواقع – لأجسامنا .. لهذا تجدنا لا نريد أن نتخلص من دخان مدينتنا بل نريد أن نحتفظ به.

قرر "هارتهاوس" أن يمضي في هذه التجربة لهذا قال:

- أجل بالطبع يا سيد "باوندرباي". أنا أوافقك تماماً.
- أنا سعيد بهذا. حسناً والآن إليك بعض الحقائق.. إن مجال عملنا هو صنع الملابس والنسيج أنه أفضل وأسهل عمل في العالم و(الأيدي) عندنا تحصل على أجور أعلى من أي عمال آخرين وليس بإمكاننا أن نجعل مصانع نسيجنا أفضل من الآن.. إلا إذا فرشنا أرضياتها بالسجاجيد الهندية.. ونحن لن نفعل هذا!

- معك الحق تماماً يا سيد "باوندرباي".

الناس هنا لا يرضون أبداً.. أنهم يريدون أفضل قطع اللحم الاحمر كل يوم، ويريدون أن يأكلوه بشوكة من ذهب! والآن هم يتحدثون عن نقابة عمال لهم! هل سمعت مثل هذا الهراء من قبل؟ حسناً، إن عمالنا لن يحصلوا على مثل هذه الأشياء يا سيد "هارتهاوس".

- أعتقد أنك على حق تماماً يا سيد "باوندرباي"!
- أنا أحب أن أفهم الرجل. كما أن الرجل يجب أن يفهمني، لقد أخبرتك بالحقائق، ولسوف أساعدك هنا على قدر استطاعتي. بقى عندي شيء واحد أحب أن أخبرك به يا سيد "هارتهاوس" أنك تنتمي لعائلة مهمة أما أنا فلا يا سيدي، إنني لست إلا قطعة قذرة من الشارع حيث ولدت.
- هذا يجعل كل شيء أفضل يا سيد "باوندرباي"!
- وأنا أعرف قذارة الشارع جيداً، ولكني نأيت بنفسي وارتفعت عنها يا سيدي، بمجهودي الخاص وأنا فخور بنفسي.. مثلك تماماً. ربما كنت على علم بأني تزوجت ابنة "توم جرادجريند"، فإذا لم تكن مشغولاً هذا الصباح، فهل تتفضل باصطحابي إلى بيتي، فإنه سيكون من دواعي سعادتي أن أقدمك لابنة "توم جرادجريند".
- يا سيد "باوندرباي" .. لقد لمست أعز أمنياتي.

وعندما قابل "جيمس هارتهاوس" السيدة "باوندرباي" .. أحس بالنشوى، كانت صامتة وفي غاية الهدوء، تبدو غير مبالية ولكنها كانت تتأمل الزائر عن كثب، وبقدر ما كانت مغرورة وباردة.. كانت أيضاً تشعر بالخجل لسلوك زوجها وأسلوبه الفظ.

إن "جيم" لم ير فتاة مثلها من قبل، كانت جميلة بالرغم أنها كانت تحاول السيطرة على نظراتها، وقد خمن "جيم" أنها من النوع الذي لا يعتمد على أحد إلا على نفسه، كان يعتقد أنها لم تعان الخبرة مطلقاً اللّهم إلا إذا كان كل شيء يدعو للشك، كانت تقف هناك .. أمامه .. ولكن عقلها كان يبدو شارداً وحيداً. لم يستطع "جيم" أن يفهمها.. على الأقل حتى الآن..

أجال "جيم" بصره في الغرفة، لم يكن بها ما ينم عن لمسات المرأة وروحها، لا بهجة .. ولا رفاهية .. لا شيء يدل على ذكريات سعيدة، كانت الغرفة فقط ثقيلة وفاخرة الرياش و.. قبيحة.

وبعد تقديم السيد "هارتهاوس" قال "باوندرباي":

- "لوو" .. ربما أصبح لـ"**كوكتاون**" – عن قريب – عضوان في البرلمان.. أبوك والسيد "هارتهاوس" ، ان السيد "هارتهاوس" قد جاء ليتعرف على المكان..

ثم توجه بالحديث لـ"جيم" قائلاً:

- كما ترى يا سيدي، فإن زوجتي تصغرني في العمر، أنا لا أعرف لماذا تزوجتني ولكن.. لابد أن لديها أسبابها، أنها تعرف كل الحقائق والمعارف التي في العالم أجمع، يا سيد "هارتهاوس"، إذ كنت تريد أن تتعلم بسرعة فليس في استطاعتي أن اقترح عليك معلماً أفضل من "لوو باوندرباي"..

فقال "هارتهاوس":

- كلي ثقة أنه لن يكون هناك من هو أفضل.

إنني غالباً لا أحسن إطراء الناس، لم أتعلم هذه العادة، فأنا لا أعد من النبلاء، سيد "هارتهاوس"، أنا "جوزيه باوندرباي" من **كوكتاون** وحسب،

وهذا يكفيني، إنني لا ألقي بالا لطريقة الشخص أو مكانته.. آخرون غيري يفعلون، أعرف هذا، أما أنا فلا..

فابتسم "جيم" لـ"لويزا" وقال:

- إن السيد "باوندرباي" مخلوق نبيل يحيا حياة برية منطلقة! أما أنا .. فلست إلا شيئاً مسكيناً ثم ترويضه!

فقالت "لويزا" بهدوء:

- إنك تجل السيد "باوندرباي" كثيراً، وأنا غير مندهشة لهذا.
- في الواقع أن الذي اندهش هو "جيم" .. لأنه لم يفهمها..

ثم قالت "لويزا":

- إنك تنوي خدمة بلدك.. وتأمل أن تجد حلولاً لكل مشاكلها

فضحك "جيم" وقال:

- لا يا مسز "باوندرباي"، لست أسعى لإيجاد أية حلول، لقد رأيت الكثير، هنا وهناك، لأني سافرت بعيداً. ولكن كل ما رأيته كان عديم الأهمية .. كل ما رأيته بدا لي عديم الأهمية. إنني أسلك هذا الطريق بناء على آراء والدك لأنها آراء طيبة، مثلها مثل آراء أخرى.

فسألته "لويزا":

- أو ليسا لديك آراؤك الخاصة يا سيد "هارتهاوس"؟
- لا .. على الإطلاق، وليس مهما أن تكون لي آرائي، أن أي مجموعة آراء ستكون على قدر مماثل من الجودة مثل غيرها!.. أو على قدر مماثل من الضرر مثل غيرها! يا مسز "باوندرباي" أن المثل الإيطالي يقول: "إن ما قدر له أن يكون، حتماً سيكون" وهذه هي الحقيقة الوحيدة. ألا توافقين؟

هذا النوع الخطر الذي يفتعل الإخلاص بدا وكأنه أعجب السيدة، ولهذا استطرد "جيم" بسرعة:

- إن الحقائق والأرقام يمكنها أن تكون مملوءة بالمتعة، أنها تعطي أحسن الفرص للإنسان، إنني استمتع بها جداً، ولكني.. لا أصدقها، ولهذا فأنا سأعمل من أجل الحقائق والواقع! ولكم يكن باستطاعتي أن أفعل أكثر إذا كنت أصدقها.

فقالت "لويزا":

- إنك ستصبح عضواً غير عادي في البرلمان.
- ليس صحيحاً على الإطلاق، فنحن جميعاً لنا نفس الأفكار ولكن.. قليل منا الأمين بدرجة تكفي لأن يصرح بهذا.

وأثناء هذه المحادثة بدا أن السيد "باوندرباي" على وشك الانفجار، أصبح وجهة ككرة كبيرة حمراء وقد قاطع الحوار فجأة قائلاً:

- سيد "هارتهاوس"، أنه ينبغي أن تزور بعضاً من أعيان هذه البلدة وأنا جاهز لاصطحابك الآن، بعد هذا لابد أن تتناول طعام العشاء معنا هذا المساء.

وهكذا تمت الزيارات وقد تكلم "هارتهاوس" جيداً مع كل السادة والوجهاء، ولكن العمل أتعبه وعلى مائدة العشاء في منزل السيد "باوندرباي"، كانت هناك أربعة مقاعد، ولكن الجالسين كانوا ثلاثة فقط وقد أخذ السيد "باوندرباي" يتحدث عن الشارع حيث ولد، بينما كانت الحسابات الطويلة قد أتعبت السيد "هارتهاوس" بالفعل، حتى أنه فكر أن يذهب إلى **الهند** ثانية أو أن يذهب إلى مصر، ربما فعل هذا لو لم تملأ "لويزا" حيزاً كبيراً من أفكاره، كان يتساءل في نفسه **قائلاً:**

- هل هناك شيء في العالم .. يمكنه أن يحرك عضلات وجهها؟!

أجل، هناك هذا الشيء، فقد فتح الباب ودخل أخوها "توم" فتغير وجه السيدة بمجرد أن رأته، كانت لها ابتسامة جميلة حقاً! مدت يدها وعانقت أصابعها أصابع "توم" بقوة، **فقال "جيم" في نفسه:**

- "آه.. نعم .. أن هذا الجرو هو حبها الوحيد"!

وتم تقديم الجرو وجلس إلى المائدة، لم يكن اسماً لطيفاً، ولكن ربما كان "توم" يستحقه.

قال "باوندرباي":

- لقد تأخرت يا "توم" الابن، لماذا؟
- كان عندي عمل كثير يجب أن أنهيه، على أي حال لا يهم أني تأخرت، أليس كذلك؟

فقال "باوندرباي":

- إن الشباب لا يجب أن يتأخروا عن موعد الطعام.

وفهم "جيم" مشكلة هذا المنزل. قال محدثاً "لويزا":

- مسز "باوندرباي"، إن وجه أخيك يبدو مألوفاً لي فهل تراني قابلته في المدرسة، أو في الشرق، ربما؟

فأجابت "لويزا" قائلة:

- لقد تعلم هنا، في البيت وهو لم يسافر خارج انجلترا للآن.. أم تراك سافرت يا "توم"؟
- لم أكن محظوظاً بما فيه الكفاية يا سيدي لكي أسافر خارج انجلترا..

وطوال العشاء كان "جيم" يفكر في مسز "باوندرباي" وأخيها، لم يكن هناك الكثير في الشاب الصغير، كان غرا.. وكان أحياناً فظا حتى مع أخته، **فقال "جيم" في نفسه:**

"لابد أن قلبها يعاني الوحدة، فإذا كان هذا الجرو يستحوذ على كل حبها، فإن قلبها حتماً يعاني الوحدة"!!

- 12 -

بعد العشاء وأثناء الأمسية التي قضاها "جيم" في منزل عائلة "باوندرباي" حاول "جيمس هارتهاوس" أن يشجع "توم الابن" على الكلام .. كان ينوي أن يجعله يحبه، أخيراً حان وقت ذهاب "جيم" الذي قال أنه لا يستطيع تذكر طريق العودة إلى الفندق فعرض الجرو أن يصحبه لبرية الطريق. وفي الفندق أمر "جيم" بالشراب له ولصديقه، وجلس "توم" على مقعد طويل مريح. كانت المشروبات التي أحضرهما الساقي قوية. وبدا"توم" الحديث **قائلا:**

- حسنا، مسيو "هارتهاوس" هل برمت بالسيد "باوندرباي" الليلة؟
- إنه شخص ممتاز..!
- هل تعتقد هذا.

فابتسم "هارتهاوس" بلا مبالاة **وقال**:

إن له أخ زوجة ظريفاً..

فقال "توم":

- أنت تقصد، أن "باوندرباي" العجوز زوج أخت مضحك للغاية.
- آوه! هذا ليس لطيفاً يا "توم"!

كان توم مسروراً بنفسه ومعجباً بهارتهاوس.. وبملابس هارتهاوس.. بصوت هارتهاوس، كما أعجبه أن يناديه بتوم.. هكذا بسرعة، كانت أمسية رائعة!

قال "توم":

- إني لم أكن أي حب لـ"باوندرباي" العجوز في يوم من الأيام، ولست أنوي أن أفعل.
- أنك لا تستطيع أن تقول هذا الكلام بالقرب من زوجته، أم تراك تستطيع؟

- أختي؟ آوه أجل!..

وأخذ "توم" جرعة كبيرة من كأسه ثم استأنف حديثه قائلاً:

- إن "لوو" لا تحب "باوندرباي" العجوز هي الأخرى!

فقال "هارتهاوس":

- إنك لا تعني ما تقول!
- بل .. اعنيه.. إن هذا صحيح.. إنها لا تحبه.
- ولكنه تزوجته يا "توم" ويبدو أنهما يعيشان في سعادة سوياً.
- أنت تعرف أبانا. أنه ليس بالأمر المدهش أن تتزوج "لوو" من "باوندرباي" العجوز، أنها لم تعرف في حياتها رجلاً أخر وقد اقترح أبي "باوندرباي" العجوز وقبلته "لوو".
- هذا هو واجب البنت الطيبة!
- بل قل.. واجب الأخت الطيبة..

لم يعلق "هارتهاوس" بينما استطرد "الجرو" في الكلام:

- لقد أقنعتها أن تتزوج "باوندرباي" العجوز، فقد كنت أقحمت على مصرفة بالرغم من أني لم أكن أود أن أعمل هناك، وإذا كانت "لويزا" قد رفضت "باوندرباي" العجوز، فإني كنت سأقع في متاعب كثيرة لقد أخبرتها بهذا ووافقت هي على الزواج به ..إنها كانت على استعداد أن تفعل أي شيء من أجل.. إنها طيبة جداً .. إنها طيبة جداً .. أليس كذلك.
- جداً!

لم يكن مهما بالنسبة لها أن تعرف رجلاً أخر فبيتنا كان كالسجن .. خاصة حين غادرته أنا .. ولكن الأمر كان هاماً بالنسبة لي فقد كان على أن أفكر في رفاهيتي وربما في مستقبلي، و"لوو" كانت طيبة جداً فيما يتعلق بهذا.

قال "هارتهاوس" وهو يصب مزيداً من الشراب:

- أجل بالتأكيد، وهي تبدو سعيدة تماماً.
- حسناً، إن الفتاة يمكن أن تكون سعيدة في أي مكان بالإضافة إلى أن "لوو" ليست فتاة عادية. ففي إمكانها أن تغلق على نفسها داخل نفسها وتفكر.. فقط تفكر أحياناً بالساعات!
- أجل، أجل ، ويمكنها أن ترفه عن نفسها!
- لا.. لا أعتقد هذا فقد ملأ أبي عقلها بكل أنواع المعلومات والحقائق الجافة. هذه هي طريقته.
- لقد شكلها.. جعلها مثله تماماً؟
- أجل وفعل نفس الشيء مع كل من حوله لقد شكلني أنا أيضاً بنفس الطريقة!
- لا يا "توم"، لست أنت!
- بل فعل يا سيد "هارتهاوس"، لقد كنت غبياً تماماً.. كنت حماراً.. عندما تركت البيت لم أكن أعرف أي شيء عن الحياة.
- أوه!.. هذه نكتة يا "توم"، أنا لا أصدق هذا.
- بل هي الحقيقة!..

ومرة أخرى أخذ "توم" جرعة كبيرة من الشارب ووضع قدمه فوق المقعد **واستطرد قائلاً**:

- بالطبع لقد تعلمت القليل منذ هذا الوقت وقد فعلت هذا بنفسي ولا فضل لأبي فيه.
- وأختك الذكية؟
- أختي الذكية لم تتغير، فقد اعتادت أن تشكو لي أنها لا تتمتع بأفكار الفتاة العادية وأنها لا تعرف أي شيء عن الحياة وعن الحب، ولكن الناس يختلفن عن الرجال.. لأنهن لا يحتجن الكثير.

توقف "توم" عن الكلام فقد راح في النوم على المقعد، فركله "هارتهاوس" **وهو يقول:**

- إن الوقت متأخر .. قم وعد إلى البيت!

فوقف "توم" وقال:

- هذه المشروبات كانت جيدة ولكنها لم تكن قوية بما فيه الكفاية بالنسبة لي.
- لا لم تكن قوية بما تكفي.
- كانت مثل الماء .. آه.. حسنا، طاب مساؤك.

وحمل الساقي "توم" إلى الشارع. كان باستطاعته أن يمشي إلى البيت وحده، لكن.. لم يكن باستطاعته أن يتذكر ما قال!

- 13 -

شكل عمال النسيج في **كوكتاون** نقابة تحت قيادة "سلاكبريدج" لم يكن "سلاكبريدج" عاملاً بل كان متحدثاً وخطيباً وحسب، كان يريد أن يحصل العمال على أجور أعلى وظروف معيشية أفضل، وبالرغم من أن "سلاكبريدج" لم يكن رجلاً عادلاً أو أميناً جداً.. إلا أن العمال وافقوا عليه وانضموا جميعاً – ما عدا رجل واحد – إلى النقابة، وفي كل أسبوع كان العمال يدفعون بعض البنسات لـ"سلاكبريدج".

وفي إحدى الأمسيات، عقد العمال جميعاً اجتماعاً في صالة واحدة كبيرة، رأس الاجتماع أكبر العمال سنا. وفي هذا الاجتماع أخذ "سلاكبريدج" يخطب ويثنى على النقابة وفي نفس الوقت يذكر بسوء هذا الرجل الذي رفض الانضمام للنقابة.

فصاح أحد المجتمعين:

- من هو هذا الرجل؟ إذا كنا هنا الليلة فدعه يتكلم!

وفي الحال تصاعدت أصوات كثيرة:

- نعم، فلنستمع إليه، يجب أن يأخذ فرصته في الكلام!

فصعد رجل على المنصة، كان وجهه يبدو مرهقاً وينم عن كبر في السن، ولكنه أيضاً..كان وجها شريفاً، **فقال الرئيس**:

- إن السيد "سلاكبريدج" يجب أن يكون عادلاً ولهذا يجب أن يجلس بينما نصغي جميعاً، "لستيفن بلاكبول" وإنكم جميعاً تعرفون "ستيفن" الطيب وتعرفون مشكلته.

بعد هذا صافح الرئيس "ستيفن بلاكبول" ثم جلس.. وجلس "سلاكبريدج" أيضاً، **ثم بدأ "بلاكبول" في الكلام:**

- أيها الزملاء .. إنني العامل الوحيد في مصنع نسيج "باوندرباي" الذي لم ينضم إلى النقابة، ولن انضم إليها، إن النقابة لا يمكنها أن تساعدني، كما أني لا أعتقد انها ستساعدكم، كما أن لدي أسبابي الخاصة لعدم الانضمام لهذه النقابة، وهي أسباب سرية ولكنها على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لي!

فانتفض "سلاكبريدج" من مقعده، وأخذ يصيح:

- هذا الرجل سوف يدمركم.. سوف يدمركم أنتم وأطفالكم وأطفال أطفالكم.

فقال "ستيفن":

- إن السيد "سلاكبريدج" خطيب والخطابة هي صنعته وهو يأخذ أجره عليها، إذن فليؤد عمله ولتدعوني أؤدي عملي، أنه لا يعرف آلام حياتي .. إنها مشكلتي .. مشكلتي وحدي.

فصاح أحد الحاضرين قائلاً:

- اجلس يا "سلاكبريدج" دع الرجل يأخذ فرصته في الكلام.

فاستأنف "ستيفن" حديثه:

- زملائي العمال .. إنني أعرف ما سيحدث فإذا لم انضم لنقابتكم فإنكم ستعزفون عن صداقتي، ولابد لي أن أتقبل هذا.

فقال الرئيس في تودد:

- فكر مرة أخرى.. قبل أن يفوت الأوان.

فرد "ستيفن":

- لقد فكرت في الأمر كثيراً يا سيدي، فوجدت أني ببساطة.. لا استطيع الانضمام لنقابتكم.

لم يكن "ستيفن" غاضباً من هؤلاء الرجال، إنه يعرفهم جيداً وهم أيضاً يعرفونه.. **ولهذا استمر في حديثه معهم في ود ظاهر قائلاً:**

كل ما يجب على أن أفعله هو أن أعمل.. بمفردي.. بينكم، وآمل أن تسمحوا لي بذلك.. لأني يجب أن أعمل لأعيش يا أصدقائي، لقد عملت في **كوكتاون** منذ طفولتي... فأين عساي أن أذهب الآن؟

وران الصمت على المكان.. نزل "ستيفن" من فوق المنصة وتحرك الرجال فأفسحوا له طريقاً إلى الباب.. لم ينظر "ستيفن" في وجه أي منهم، وسار مباشرة نحو باب الخروج وفي دقيقة كان خارج القاعة..

صاح "سلاكبريدج":

- ليس بيننا مكان لرجل شرير .. يا عمال **كوكتاون** قوموا بواجبكم! والآن فلنهتف ثلاثا لنقابتنا!

وصرخ الخطيب بأول "هوراه".. ثم شاركه عشرون صوتاً في الثانية.. ثم صاح الجميع بالثالثة.

وهكذا بدأ "ستيفن بلاكبول" حياة وحيدة موحشة، فلم يعد ينظر في وجهه رجل في المصنع أو في الشارع.. ولا أحد يكلمه ولو كلمة واحدة، حتى النساء اللاتي كان يعمل معهن التزمن الصمت. حقاً إن "ستيفن" كان دائماً رجلاً هادئاً.. ولكنه الآن يشعر بوحشة كاملة، لم يعد يرى "راشيل" وفي نفس الوقت هو يخاف أن يبحث عنها.

وأصبحت الأيام التي أعقبت الاجتماع ثقيلة وطويلة، وفي الليلة الرابعة غادر "ستيفن" المصنع في موعده المعتاد وبينما هو سائر أوقفه شاب له شعر فاتح اللون.. كان "بيتزر"!

قال "بيتزر" لـ"ستيفن":

- أنت "بلاكبول" أليس كذلك؟

ومن فرط سعادة "ستيفن" لسماع صوت إنسان يخاطبه، رفع قبعته تحية للشاب **وإجابه**:

- بلى، يا سيدي.
- إن السيد "باوندرباي" يريد أن يراك، فهل أن تعرف أين – سكن؟
- أجل.
- إذن اذهب إليه .. إنه في انتظارك!

وبصوت عال سأل "باوندرباي" "ستيفن بلاكبول" قائلاً:

- حسناً، يا "ستيفن" ماذا فعل بك رعاع **كوكتاون**؟ كان في الغرفة أربعة أشخاص يتناولون الشاي .. السيد "باوندرباي"، زوجته، أخوها، والسيد النبيل القادم من لندن، بينما وقف "ستيفن" يحتضن قبعته عند الباب. استأنف "باوندرباي" حديثه **قائلاً**:
- هيا.. أسرع يا "ستيفن"، خبرني، فهأنذا انتظر.

يا له من صوت أجش.. لم يكن "ستيفن" يحب سماعة خاصة بعد أربعة أيام من الصمت التام..

وقال "ستيفن":

- لقد تسلمت رسالتك يا سيدي.. إن شابا قال لي أنك تريد أن تتحدث إليَّ.
- حدثني عن نفسك .. وعن هذه النقابة!
- آسف يا سيدي، ليس عندي ما أقوله في هذا الصدد.

فزفر "باوندرباي" بصوت كصوت رياح عاتية .. **ثم قال:**

- هل تسمع هذا يا "هارتهاوس"، هذا واحد من "الأيدي" التي تعمل عندي، وقد كنت أعتقد أنه بدأ ينحدر، وقد حذرته، والآن هؤلاء الحمقي وصموه وهو يخاف أن يفتح فمه!

- لست خائفاً يا سيدي، ولكن ليس عندي شيء أخبرك به.
- هذا مضحك يا "ستيفن"! هل تريد أن أصدق أن "سلاكبريدج" ، لا يسبب المشاكل هنا.
- أنا أسف يا سيدي، فعندما يكون زعماء الناس أشراراً فهذا ليس ذنب الناس، لأنهم ليست باستطاعتهم الحصول على زعماء أفضل!
- والآن "هارتهاوس".. اسمع لهذا وسوف تتعلم شيئاً عن متاعبنا..

قال "باوندرباي" هذا ثم نفخ زفيره الحاد واستأنف حديثه متوجهاً إلى "ستيفن":

- خبرني يا "ستيفن" .. لماذا رفضت الانضمام لهذه النقابة؟
- لم أكن لاقول شيئاً عن هذا يا سيدي، ولكنك سألتني ولهذا سأجيب، لقد قطعت على نفس عهداً بهذا.
- لا يا سيدي، ليس لك.

فصاح "باوندرباي":

- بالطبع ليس لي! فهؤلاء الأشخاص لا يفكرون في مطلقاً.. أوه.. لا!

استدار "ستيفن" إلى السيدة "باوندرباي" قائلاً:

- لا يا سيدتي، ليسوا رعاعاً، ولا لصوصاً، أنا أعرف أنهم لم يكونوا رحيمين بي، ولكنهم جميعاً يعتقدون أنهم يقومون بواجبهم، وهذه هي الحقيقة، أنا أعرفهم جيداً، لقد عشت بينهم حياتي كلها، يجب أن أقول الحقيقة فيما يتعلق بهم، أنهم شرفاء وصادقون وطيبون وهم أيضاً أناس ظرفاء ومحبوبون.

قهقة "باوندرباي":

- ولكنهم لا يحبونك يا "ستيفن"!

- إنهم يحبون كل زملائهم العمال يا سيدتي.. وأنا زميل.. عامل ..

واستمر "ستيفن" في توجيه كلامه لمسز "باوندرباي":

إن الأشياء الطيبة فيهم – كالشرف والواجب – تسبب لهم أحياناً المتاعب وتدفعهم أحياناً لارتكاب بعض الأخطاء، لكنهم يحبون إتيان الشيء الصحيح والخطأ ليس دائماً خطاهم.

تملك الغضب من "باوندرباي"، فهذا الموضوع ليس من شئون مسز "باوندرباي" حتى يوجه لها "ستيفن" الكلام لهذا **قال:**

- اسمع يا "ستيفن"، إن هذا السيد – وأشار لـ"هارتهاوس" – عضو في البرلمان جاء من لندن وهو يريد أن يتقصى الحقائق، والآن أخبرني، أرجوك ما الذي تشكو منه.
- أنا لا أشكو يا سيدي، لقد جئت إلى هنا لأنك طلبت أن تتحدث إليَّ.
- حسناً، فما الذي يشكو منه "الأيدي".
- سيدي، أنا لست متحدثاً لبقاً، ولكني أعرف مشاكلهم، أننا نعيش في مدينة غنية جداً.. وفي نفس الوقت هي مدينة فقيرة جداً، آلاف العمال يعملون في المصانع، وهما جميعاً يؤدون نفس العمل وقد بدأوا حينما كانوا أطفالاً صغاراً، وهم لا يتوقفون عن العمل حتى يلحقهم الموت، سيدي.. انظر إلى بيوتنا.. إنها صغيرة... مظلمة ومزدحمة، ليس لدينا أمل في شيء طيب حياتنا، فيما عدا الراحة الطويلة التي تأتي في النهاية!..

واستمر "ستيفن" في الكلام:

- إنك تتحدث عنا يا سيدي.. وتكتب عنا، وتتحدث في البرلمان باسمنا، وأنت دائماً على حق – بالطبع – ونحن دائماً مخطئون! إن حياتنا عبارة عن "لخبطة" يا سيدي "لخبطة" عظيمة!

فقال "باوندرباي":

- وكيف .. كيف نصحح هذه اللخبطة؟
- ليس بإمكاني الإجابة على هذه يا سيدي، إنها مهمة الزعماء.. هنا وفي البرلمان.

فصرخ "باوندرباي" قائلاً:

- أعرف! سوف نقبض على "سلاكبريدج" وأمثاله وتضعهم في السجون.

فهز "ستيفن" رأسه وقال:

- هذا لن يغير شيئاً، يا سيدي، فاللخبطة هنا .. كانت موجودة قبل مجئ "سلاكبريدج".

ثم أشار إلى ساعة كبيرة معلقة على الحائط وقال:

- إنك إذا وضعت هذه الساعة في السجن، فإن الزمن لن يتوقف يا سيدي!

فنظر "باوندرباي" بسرعة وحدة إلى "ستيفن" ثم حرك عينيه تجاه الباب، ففهم "ستيفن" ووضع يده على مقبض الباب ليخرج، ولكن كان عليه أن يدافع عن شرف من ينتمي إليهم – أولاً – **فنظر إلى السيد "هارتهاوس" وقال:**

- إنني لست رجلاً متعلماً يا سيدي ولا أعرف السبيل لإنهاء هذه اللخبطة، ولكني أعرف الأشياء التي لا يمكن أن تصلحها، فاستعمال اليد الحديدية لن تصلحها، والسلبية التامة لن تصلحها، وإذا فرضنا أن أحد الجانبين دائماً على حق فإن الجانب الآخر سيكون دائماً على خطأ، وهذا أيضاً لن يصلحها.. هناك عالم أسود فارغ بين الجانبين يا سيدي.. وبقاؤهما متباعدين هكذا لن يصلح هذه اللخبطة، فنحن رجال ونساء.. ولسنا أرقاماً ميتة أو آلات.. أن لنا قلوباً وعواطف .. أمنيات وذكريات و.. مخاوف، مثلكم تماماً يا سيدي!

ثم فتح – "ستيفن" الباب ووقف ينتظر، في الوقت الذي أصبح فيه وجه "باوندرباي" شديدة الحمرة، **ثم قال "باوندرباي":**

- آه يا "بلاكبول" .. إنها الملعقة الذهبية ثانية! أنتم دائماً تتشاكون. هذه هي مشكلة حياتكم، أليس كذلك؟

فهز "ستيفن" رأسه وقال:

- إنني لست إلا عامل نسيج يا سيدي!
- إنك تسبب الكثير من المشاكل، لدرجة أنه حتى النقابة قد ضجرت منك، لم أكن أبداً أعتقد أن هؤلاء الرعاع يمكن أن يكونوا على صواب في أي شيء، ولكني الآن أوافقهم.. لأني أنا أيضاً ضجرت منك!

فرفع "ستيفن" عينيه بسرعة في وجه "باوندرباي" الذي قال له:

- خذ أجرك في نهاية الأسبوع، ثم أذهب إلى مكان آخر.

فقال ستيفن:

- ولكن سيدي، إذا لم أستطع أن أعمل معك.. فلن يكون باستطاعتي أن أجد عملاً في أي مكان آخر.. أنت تعرف هذا يا سيدي!
- وهذه مشكلتك أنت!

فنظر "ستيفن" إلى مسز "باوندرباي" .. ولكنها لم تكن تنظر إليه، فاستدار إلى الباب وغادر الغرفة..!!

- 14 -

كان الظلام قد بدأ يزحف على المدينة حينما غادر "ستيفن" منزل "باوندرباي"، وفي الطريق كانت في انتظاره مفاجأة، في الحقيقة .. مفاجأتان .. فقد قابل هذه العجوز الغريبة التي كان قد قابلها منذ أكثر من عام أمام بيت السيد "باوندرباي". أما المفاجأة الثانية.. فهي أن "راشيل" كانت بصحبة السيدة العجوز!

فقال:

- آه! "راشيل" .. عزيزتي! وأنت أيضاً يا سيدتي! هل أنت معها؟

فأجابت السيدة العجوز:

- نعم يا سيدي، بالرغم أننا لم نتقابل إلا الآن، كنت أرقب بيت السيد "باوندرباي" منذ الصباح، فقد سمعت أنباء عن زواجه وكنت آمل أن أرى زوجته. ولكنها لا تغادر البيت مطلقاً، ثم .. ومن عشر دقائق فقط أخذت أتكلم مع هذه الشابة الطيبة وأخذت تتكلم معي.

مرة أخرى شعر "ستيفن" أنه لا يحب هذه المرأة. لم يكن يفهم هذا الشعور، لأنها كانت تبدو امرأة طيبة وبسيطة، وعلى أي حال فقد أجابها بطريقته المهذبة المعتادة **قائلاً**:

- حسناً يا سيدتي.. أنا رأيت السيدة "باوندرباي"، إنها شابة وجميلة، عيناها السوداوان مملوءتان بالفكر وطريقتها هادئة.
- صغيرة وجميلة! أجل، وسعيدة؟!

فقال "ستيفن" بتردد:

- إني .. أفترض هذا.
- تفترض؟! بل لابد أن تكون سعيدة! إنها زوجة رئيسكم!

فنظر "ستيفن" إلى "راشيل" نظرة لها مغزي **وقال:**

- لن يكون رئيسي بعد هذا الأسبوع.

فتساءلت "راشيل" بقلق بالغ:

- هل تنوي ترك المصنع؟
- يجب عليَّ أن أفعل، إن هذا أفضل شيء..لي وللعمال ؟أيضاً، يجب أن أرحل عن كوكتاون وأبحث عن عمل في أي مكان آخر.
- وأين ستذهب يا "ستيفن"؟!
- لا أدري، ولكني سأجد مكاناً..

كان يكره أن يترك "راشيل" ولكن هذا سيكون أفضل لها، فالعمال لن يغضبوا منها أن هو رحل، **وقال:**

- إني أشعر أن روحي أخف الآن يا "راشيل"!

فابتسمت له بحنان وسار ثلاثتهم، وسأل "ستيفن" السيدة قائلاً:

- هل ستبقين في **كوكتاون** الليلة يا سيدتي؟!
- نعم، سأقضي الليلة في الفندق الصغير المجاور للمحطة ثم أعود لبيتي في الصباح.
- تفضلي عندي يا سيدتي لتناول قدحاً من الشاي وستأتي "راشيل" أيضاً.. بعد هذا سأوصلك للفندق يا سيدتي، فقد يمر وقت طويل قبل أن يتسنى لنا أن نلتقي ثانية يا "راشيل".

وافقت المرأتان، ووصلوا جميعاً إلى الشارع الضيق حيث يعيش "ستيفن" الذي نظر بخوف إلى أعلى، فوجد نافذته ما زالت مفتوحة كما تركها في الصباح، ولم يكن ثمة أحد، فقد فرت زوجته منذ شهور مضت، وكان على "ستيفن" أن يشتري أثاثاً جديداً للبيت. إنه لا يعلم أين ذهبت..

أشعل "ستيفن" المصباح ثم أخذ يعد الشاي بينما كانت "راشيل" تقطع بعض الخبز والزبد، استمتعت السيدة العجوز بالعشاء وبدت عليها السعادة..

وسألها "ستيفن":

- إنني لم أسألك قط عن اسمك يا سيدتي.
- اسمي مسز "بيجلر"، وقد مات زوجي منذ سنتين، كان رجلا طيباً جداً.
- إني أسف يا سيدتي، هل لديك أبناء؟

فارتعش القدح في يد "بيجلر" وإجابات متلعثمة:

- لا .. لم يعد لي أبناء، لم يعد لي!

فهمست "راشيل" لـ"ستيفن" قائلة:

- مات يا "ستيفن".

فقال "ستيفن" بحزن:

- اعتذر يا سيدتي لتوجيهي هذا السؤال.. إنني ألوم نفسي لأني ..

فقالت السيدة العجوز:

- كان لي ولد.. كان يعمل بجد واجتهاد، ولكني لا أحب أن أتكلم عنه لأنه.. لقد فقدته!

في اللحظة التالية سمع الجميع ضوضاء على درجات السلم، فذهب "ستيفن" وفتح الباب فوجد المرأة التي تملك المتجر الذي يقع أسفل غرفته.. فكلمها، وسمع الجميع – "راشيل" ومسز "بيجلر" – المرأة وهي تنطق باسم "باوندرباي"، **فزعت مسز "بيجلر" وانتفضت واقفة وهي تقول:**

- آوه، خبثوني ... لا تدعوه يراني.. أرجوكم!!

فتساءل "ستيفن" في دهشة:

- ماذا بك يا مسز "بيجلر" .. إنه ليس السيد باوندرباي، بل السيدة زوجته ولا أعتقد أنك تخافين منها، أليس كذلك؟ منذ ساعة كنت تظنين أنها سيدة رائعة!

قالت مسز "بيجلر":

- هل هي السيدة..! أنت واثق؟!
- تمام الثقة!
- إذن.. سوف أقف هناك في الركن.. وأرجوك ألا تتحدث إليَّ.

أخذ "ستيفن" المصباح ونزل إلى أسفل، ثم عاد بصحبته "لويزا" ثم دخل "الجرو" في أثرهما: كانت هذه أول مرة تزور فيها "لويزا" بيت أحد العمال في **كوكتاون**، كانت تعرف الكثير من الحقائق الجافة عن هؤلاء الناس وعن حياتهم، كانت تعرفهم كما تعرف.. الحشرات التي درستها في كتب العلوم، إنهم يبنون أعشاشاً ويعملون، وهذه الغرفة ..كانت أحد أعشاشهم!

أخذت "لويزا" تجيل البصر في الغرفة للحظات ولاحظت قطع الأثاث القليلة المتناثرة فيها ورأت أيضاً بعض الكتب و .. المرأتين، وخمنت "لويزا" أن المرأة الصغيرة ليست زوجة "ستيفن" .. في هذا الصباح كان "ستيفن" يتوجه بحديثه إلى مسز "باوندرباي" والآن وبنفس الطريقة توجهت مسز "باوندرباي" **بحديثها إلى "راشيل":**

- لقد جئت لأساعدكم، إذا سمحتم لي، هل تعرفين ماذا حدث؟ هل أخبرك؟
- أخبرني بأنه سيترك العمل في المصنع.
- وعندما يترك العمل في مصنع زوجي.. لن يستطيع أن يعمل في أي مكان آخر **كوكتاون**، هل هذا صحيح؟

- أجل، أيتها السيدة الشابة، فالكل قد وضعوه في القائمة السوداء..

فقاطعتها "لويزا" قائلة:

- إن أصدقاء العمال سيرفضون العمل معه لأنه رفض الانضمام إلى نقابتهم، ولنفس هذا السبب لن يقبل أي صاحب عمل الحاقة بمصنعه، قولي لي .. هل نتعهد لك بألا يلتحق بالنقابة؟

فأجهشت "راشيل" بالبكاء وقالت من خلال دموعها:

- لم أكن أود هذا.. آه يا رجلي المسكين، كنت فقط أود أن ينأى بنفسه عن المشاكل.. من أجله هو لم أكن أعتقد أنه سيفقد وظيفته، والآن.. الآن هو يفضل الموت على أن يخنث بوعده.

فأخذ "ستيفن" يدها في يديه بحنان وقال لها:

- إنني أحمل لك حباً وتقديراً عظيمين يا "راشيل"، وقد أسعدني أن قدمت لك وعداً، ويسعدني أن أحافظ على هذا الوعد.

فنظرت "لويزا" إليه باحترام شديد ثم قالت له برقة:

- ماذا تنوي أن تفعل؟
- سوف أرحل يا سيدتي، سأحاول أن أجد عملاً في مكان آخر.
- وكيف ستسافر؟
- سأمشي على قدمي!

فقالت "لويزا" وهي تفتح حقيبتها وتخرج منها أربعة جنيهات وضعتها على المنضدة:

- "راشيل" .. أنت تعرفينه جيداً.. وفي إمكانك أن تقنعيه.. دون أن تؤذي مشاعره أن هذه النقود نقوده هلا فعلت ذلك؟

- لا أستطيع أيتها السيدة الشابة. أنت عطوفة جدا فقد فكرت في شخص مسكين، ولكنه هو وحده الذي يستطيع أن يقبل هذه النقود أولا يقبلها.

وللحظات غطى "ستيفن" وجهه بيديه .. ثم ابتسم وقال:

- كلاكما سيدتان طيبتان، إن الإنسان ليس لديه إلا القليل من الكبرياء، ولكني لن أكون غبياً وجاحداً سوف أخذ جنيهين يا سيدتي، وسوف أعيدهما حينما أجد عملاً.. وسيكون هذا أحب عمله عملته في حياتي.

والتقط "ستيفن" جنيهين.. ووضعت "لويزا" جنيهين في حقيبتها. طوال هذا الحديث كان أخوها جالساً على السرير، والآن أصبحت "لويزا" مستعدة للذهاب **فنهض "توم" وقال:**

- انتظري دقيقة يا "لوو" .. هل يمكنني أن أتحدث إليه؟ فقد خطرت لي فكرة .. "بلاكبول" تعال معي للخارج للحظات.

فتحرك "بلاكبول" في اتجاه المصباح.. **فصاح "توم" قائلاً:**

- لا .. لا يا رجل، لسنا في حاجة للمصباح.

تبع "ستيفن" "توم" إلى الخارج وأغلق "توم" الباب خلفهما، ثم **همس "توم" محدثاً "ستيفن":**

- أنني أود مساعدتك، لا تسألني عن التفاصيل لأنها مجرد فكرة، اسمع إنني أعمل في المصرف وأنت تعرف الحارس "بيتزر" بالطبع، متى ستغادر **كوكتاون؟**

فقال "ستيفن":

- إن اليوم هو الاثنين .. سوف أرحل يوم الجمعة أو السبت.

- حسناً، سأحاول أن أساعدك، كل ما عليك هو أن تنتظر بجوار المصرف في المساء، مساء الغد وكل مساء حتى ترحل، سوف أخبر أختي عن هذا وأعرف أنها ستوافق، لا تحدث "بيتزر" بنفسك فإذا استطعنا أن نفعل أي شيء من أجلك فسوف يحمل "بيتزر" إليك رسالة، هل فهمت؟
- أجل يا سيدي.. هذا واضح تماماً.

فتح "توم" الباب ونادى على "لويزا":

- هيا يا "لوو" .. أنا جاهز!

ثم اندفعا هابطاً درجات السلم وانتظر أخته في الشارع..

أحست مسز "بيجلر" بانطباع طيب تجاه "السيدة المحبوبة"، أوصلها صديقاها إلى الفندق وتمنيا لها ليلة سعيدة، ثم مشى "ستيفن" و"راشيل" معاً إلى منزل راشيل، كان قد قرراً ألا يتقابلا ثانية قبل أن يغادر "ستيفن" **كوكتاون**. قالا كلمات قليلة عن الحب والرفاهية وتواعدا على تبادل الرسائل ثم ودع كل منهما الآخر.

عمل "ستيفن" أيام الثلاثاء.. الأربعاء والخميس، وفي كل ليلة من ليالي هذه الأيام كان يقف أو يتمشى بالقرب من المصرف، ولكن "بيتزر" لم يكلمه مطلقاً برغم أنه كان يراه كل ليلة كما كان يرى مديرة بيت السيد "باوندرباي" تطل من النافذة التي تعلو المصرف، وفي مساء الخميس، انتظر "ستيفن" لساعتين ولكن شيئاً لم يحدث كان يشعر كأنه لص كلما نظر إليه المارة وهو واقف.

باع "ستيفن" أثاث بيته ولهذا نام على الأرض في ليلة الخميس، وغادر غرفته قبل الخامسة صباحاً.. كانت الطرقات خالية تماماً.

وبعد ساعتين ألقى نظرة للخلف من فوق تل، كانت السماء تشرق ساطعة فوق المدينة، وكانت الأجراس تدق إيذاناً ببدء العمل والدخان الأسود بدأ يتصاعد للسماء..

وأحس "ستيفن" وكأنه صبي صغير وسمع صوت تغريد الطيور عالياً حوله.. كأنه رسالة غرام من "راشيل" ..!

- 15 -

يمتلك السيد هارتهاوس حصاناً يركبه عندما يكون متوجهاً لحضور اجتماع ما، كما أنه أحياناً يكون عليه أن يسافر إلى قرى تبعد عدة أميال، ومن الجدير بالذكر أن أعماله في المدينة لا تستهلك الكثير من وقته. فهو يتلقى بعض الخطب والمحاضرات، وهو رجل محبوب، أما أفضل أصدقائه فهم آل "باوندرباي" .. وأفضلهم على الإطلاق هي.. مسز "باوندرباي"!

كانت "لويزا" معجبة ببعض أفكارها البوهيمية، كانت تذكر دائماً قوله: "إن ما قدر له أن يكون.. حتماً سيكون، فهذا القول كان يتفق بصورة مع بعض معتقداتها. ولكن السيد "هارتهاوس" كان يعتقد أن كل الأشياء عديمة الأهمية .. فارغة، و"لويزا" لا توافق على هذا الرأي على إطلاقه، ولكن هذا الرأي لم يكن جديداً عليها بالتأكيد! وهو رأي غير ضار أيضاً، كانت "لويزا" تستمتع بالحديث معه.

لاحظ "هارتهاوس" تغيرا فيها وتذكر كل ما قال له أبوها.. فبدأ يفهمها .. ببطء.. وبدأ يفهم أسلوبها، بالطبع.. هو لم يتسنى له أبداً أن يعرف مدى عمق وقدرة عقلها، فعقله كان ضيقاً جداً على هذا، وقد اعتاد أن ينظر إليها ويقول في نفسه:

- "إن وجهها يصبح جميلاً حقاً حين ترى"الجرو"، لكم أتمنى أن يصبح وجهها بهذا الجمال من أجلي".

كان السيد "باوندرباي" قد اشترى بيتاً في الريف فقد أعجبته إلى حد ما فكرة أن يكون عنده بيت في المدينة وبيت في الريف.. كان بيته الريفي بيتاً كبيراً يبعد خمسة عشر ميلاً من **كوكتاون** .. وكان هناك خط حديدي صغير غير بعيد عن البيت والقطارات تمر كثيراً قادمة من أو ذاهبة إلى **كوكتاون**.

وكانت للبيت حديقته الخاصة .. كانت هناك أشجار كثيرة ومقاعد مريحة في الظل الرطيب في اتجاه كوكتاون، وكانت تلال الفحم القديمة تترك علامات سوداء على الطريق .. كانت الأعشاب تنمو حول المباني الخالية وتكاد أن تخفيها، كما كانت الأعشاب والحشائش تغطي بعض قمم التلال القديمة، كان المكان يبدو خطرا خاصة في الليل.. ولكن البلدة كانت تبدو منتعشة وخضراء فدخان **كوكتاون** كان بعيداً.

أحبت "لويزا" المكان، ومكثت هناك معظم فترات هذا الصيف الحار، بينما كان يذهب السيد "باوندرباي" إلى هناك فقط أثناء الليل أو في أيام الآحاد، وهو لا يمتطي الخيل في معظم الأحيان ولكن كان هناك إسطبل لدسته من الخيل وقد دعا السيد "هارتهاوس" للإقامة في هذا البيت الريفي، فقد **قال له السيد "باوندرباي":**

- لن تحتاج لأن تدفع أجر إسطبل في **كوكتاون** ..احتفظ بحصانك هنا ويمكنك أن تبقى أنت أيضاً .. إذا كنت تحب هذا.

في يوم من أيام الصيف الحارة .. على مقعد في الحديقة .. تحت الظل الرطيب .. والسيد "هارتهاوس" يحاول أن يجعل وجه "لويزا" يبتسم من أجله .. جلس إلى جوارها عصر هذا اليوم **وقال:**

- آه مسز "باوندرباي"، إني أود أن أتحدث إليك في موضوع يخص أخاك، صديقي الشاب "توم"..
- وفي الحال توردت خدود "لويزا" فقال "هارتهاوس" في نفسه: "رائعة الجمال حقاً،.."

ثم استأنف حديثه **قائلاً:**

- سامحيني يا مسز "باوندرباي"، إن النظرة التي أطلت من عينيك لتثير الغرور في نفس "توم"، لم أكن أستطيع تجنب ملاحظتها، كما أني معجب بها..
- إنني انتظر يا سيد "هارتهاوس"، ماذا تحب أن تقول.. فيما يخص "توم"؟
- أنت شديدة معي، وأنا استحق هذا! فأنا كلب عديم الأهمية، أعرف هذا.. لكنني لست منافقاً.. إنني مهتم بأخيك!
- هل هناك – حقاً – شيء يهمك في الدنيا يا سيد "هارتهاوس"؟
- فيما يخص "توم" .. نعم، لقد فعلت الكثير من أجله .. بل إن حياتك كلها تدور حوله..

فتحركت "لويزا" فجأة على مقعدها.. واستطرد "هارتهاوس":

- ولكن سامحيني – ثانية.. فأنا مهتم به من أجله هو..

ثم ابتسم وقال:

- ليس بذات أهمية إذا ما كان شاباً ما عديم التفكير .. جاحداً أو .. فظاً بعض الشيء أو إذا أنفق كثيراً، حسناً.. هل "توم" له هذه الخصال؟
- أجل!
- وهل يقامر؟
- أعتقد هذا..

وبعد لحظات من الصمت عادت "لويزا" وقالت:

- أجل..إني أعرف إنه يقامر..
- وبالطبع .. يخسر؟
- أجل.

- إن كان من يقامر يخسر بعض المال؛ هل لي أن اسأل.. هل تمدينه أحياناً بالمال الذي يقامر به؟ إن هذا ليس من شأني أعرف ولكني أعتقد أن "توم" ربما يعاني بعض المتاعب، وأحب أن أساعده إذا كان هذا ضرورياً .. ومن أجله.. طبعا..

لم تقل "لويزا" شيئاً فاستطرد "هارتهاوس" في حديثه:

- إن "توم" لا يتمتع بمزايا كثيرة، ربما لم تعده أفكار والده المحترم لمثل هذا .. العالم القاسي .. والسيد "باوندرباي" رجل طيب وقوي – هذه حقيقة ولكنه ليس بالشخص الذي يلجأ إليه "توم" عندما يقع في المتاعب.
- هذا صحيحاً.. صحيح تماماً.
- حسناً، إذن – مسز "باوندرباي" – إنني مستعد لتقديم المساعدة، إن لي بعض الخبرة في مثل تلك الأمور ، وإذا أخبرتني الحقيقة فـ..

ولكن "لويزا" قاطعته:

- حاول أن تفهمني يا سيد "هارتهاوس"، أنا لا أشكو شيئاً، كما ترى أني غير آسفة على أي شيء فعلته..

فقال هارتهاوس في نفسه:

- "مملوءة شجاعة أيضاً!:

بينما استمرت مسز "باوندرباي" في حديثها:

- إن أخي أقترض مني بعض المال منذ عام أو يزيد .. بعت بعض المجوهرات ..

توقفت "لويزا" عن الكلام ونظرت إلى السيد "هارتهاوس"، لقد باعت بعض المجوهرات التي اشتراها لها زوجها، هذه هي الحقيقة .. يمكن حتى للإنسان الغبي أن يخمنها، و"هارتهاوس" لم يكن بالإنسان الغبي، **ثم أكملت "لويزا" حديثها:**

- منذ هذا التاريخ أعطيت أخي الكثير من المال، ومنذ أسبوعين طلب مني مائتي جنيه، ولم يكن عندي هذا المبلغ، وإني لقلقة جداً عليه يا سيد "هارتهاوس"، ولكني لم أخبر أحد سواك بهذا السر"

فقال هارتهاوس بهدوء:

- إن "توم" لم يكن حكيماً، كل الرجال تأتي عليهم فترات يفقدون فيها الحكمة في تصرفاتهم، وأنا لا ألومه لهذا، ولكنه ارتكب ذنباً آخر .. ذنباً أخطر، ولا يمكنني أن أسامحه عليه.
- لماذا؟ ماذا أفعل؟ أخبرني أرجوك!
- لقد كنت أمينة معي يا مسز "باوندرباي"،ولهذا سأكون أميناً معك .. إنني لا أستطيع أن أسامح "توم" على سلوكه الفظ معك .. يجب عليه أن يكون رقيقاً وعطوفاً معك في كل فعل أو قول أو حتى نظرة تصدر منه على مدى عمره كله فأنت أفضل أصدقائه وحبك ورعايتك له يفوقان الوصف، ولكن ماذا أعطاك .. أو حتى عرض أن يقدم لك؟ .. لا شيء! .. على ما أعتقد .. اللّهم إلا كلمات قاسية وأسلوباً قبيحاً.

بعد هذا الكلام بدت أشجار الحديقة وكأنها طافية على سطح من الدموع أمام "لويزا" .. كانت عيناها ترقرقان بالدمع من أجل شيء دفين في أعماقها، ولكنها لم تهبها بعض السلوى.

واستكمل "هارتهاوس" حديثه قائلاً:

- إنني شخص بوهيمي بما فيه الكفاية يا مسز "باوندرباي"، ولم أحاول قط أن أكون طيباً أو شاكراً ولهذا فأنا أعرف تماماً أي شرك وقع فيه "توم"، وسأحاول أن أساعده ليتخلص منه، سوف أحاول أن أمنعه من المغامرة .

قال هذا ثم نظر إلى أعلى فوجد شخصاً بالقرب من البيت فأشار إليه وقال:

- لابد أنه أخوك، فلنذهب لنقابله.

ساعدها على النهوض وتأبطت هي ذراعه، كان "توم" يضرب بعض الحشائش بعصا، **كانت في يده عندما رآهما صاح:**

- أهلاً! لم أكن أتوقع وجودكما هنا.

فقال "هارتهاوس":

- آه! كنت تتوقع إحدى شابات **كوكتاون** الجميلات – على ما أعتقد – وبالطبع خيبنا رجاءك.

فرد "توم":

- إني أرجو أن تقع في حبي سيدة غنية جداً .. حتى لو كانت عجوزاً قبيحة .. فلن أفرط فيها أبداً!
- إنك دائماً تفكر في النقود يا "توم".
- إن كل إنسان يفكر فيها.. أختي أيضاً.. أليس كذلك يا "لوو"؟

فردت "لويزا" قائلة:

- لا يا "توم"، ليس دائماً.

فقال "هارتهاوس":

- يبدو أن "توم" غير سعيد اليوم، ويجب علينا ألا نثير قلقة.
- أنا أعرف كيف تفكر أختي يا سيد "هارتهاوس"، وهي تعرف أيضاً.
- لا تصدقيه يا مسز "باوندرباي"، فهو وإن كان غير مهذب .. إلا إن بإمكاني أن أخبرك بفكرته عنك!

فقال "توم":

- إنني امتدحها، عندما لا تهتم بالنقود، وسأفعل هذا ثانية إذا كان لدي سبب وجيه، ولكن هذا لا يهمك يا سيد "هارتهاوس" بالإضافة إلى أني تعبت منه أيضاً

وصلوا إلى البيت فدخلت "لويزا" بينما وضع السيد "هارتهاوس" يده على كتف "توم" **وقال له:**

- "توم" .. دعنا نتمشى قليلاً فأنا أريد أن أتحدث معك!

وجلسا على سور واطئ في نهاية الحديقة.

- والآن يا "توم" .. ما المشكلة؟
- آوه يا سيد "هارتهاوس"! إني مفلس كما أني واقع في مشكلة.
- يا صديقي العزيز.. أنا أيضاً مفلس.
- ولكنك لست متورطاً في أية متاعب.. إن أختي كان من الممكن لها أن تساعدني.. لكنها لم تفعل.
- إنك تنتظر منها الكثير، لقد أعطتك الكثير من المال! فكم تحتاج الآن؟
- فات الأوان يا سيد "هارتهاوس"، لم أعد في حاجة إلى المال الآن، كان يمكن لـ"لوو" أن تحصل عليه من أجلي من زوجها "باوندرباي" العجوز، لقد تزوجته من أجلي، ألم تفعل؟ ولكنها رفضت أن تسأله شيئاً من أجلي، ولو كانت لطيفة معه .. لأعطاها كل ما تطلب، ولكنها ليست لطيفة معه .. ولو حتى من أجلي!

كانت هناك بحيرة صغيرة بالقرب منهما في الحديقة فأحس "هارتهاوس" فجأة بأنه يود أن يقذف بهذا "الجرو" فيها. ولكنه احتفظ ببرود أعصابه وقال:

- حسناً يا "توم" .. دعني أحاول أن أكون المصرف الخاص بك.
- المصرف الخاص بي؟!

وانقلبت سحنة "توم" وشحب وجهه وقال:

أرجوك.. لا تتكلم عن المصارف والمصرفيين! فتعجب السيد "هارتهاوس"، لماذا يبدو على "الجرو" التعب والمرض هكذا؟! **ثم قال:**

- اسمع يا "توم".. عندما تقع في أية متاعب، دعني أعرف قبل أن تتفاقم .. وسأحاول أن أدلك على طريق سهل للخروج منها.
- أوه، أشكرك يا سيد "هارتهاوس" أنك صديق حقيقي، وكم كنت أتمنى لو أني عرفتك منذ زمن.
- ولكن.. يجب أن تفعل شيئاً من أجلى يا "توم" كن أكثر عطفاً مع أختك .. دعها تشعر بوضوح أنك تحبها.
- سوف أفعل، يا سيد "هارتهاوس"، وسوف أبدأ في الحال.. هذا المساء.

وبر "توم" بوعده فقد بادر أخته في مساء ذلك اليوم وقبل العشاء..

- أرجوك أن تسامحيني "يا لوو" إنك تعلمين أني أحبك ولم أكن أريد أن أبدو غير عطوف!

بغد هذا أصبحت تمنح ابتسامتها الجميلة للسيد "هارتهاوس" أيضاً، فقال "جيم" في نفسه:

- "هذا طيب.. طيب جداً، إن ما قدر له أن يكون حتماً سيكون"!!

- 16 -

لم يكن "هارتهاوس" أقل سعادة في صباح اليوم التالي، فقد أشرقت ابتسامة "لويزا" الجميلة من أجله، وكان لا يفتأ يردد بينه وبين نفسه: "إن عينيها أشبه بقطعتين براقتين من الماس"!

وفي مساء أحد الأيام، في الساعة السادسة عاد "هارتهاوس" من اجتماع جماهيري، وبينما هو يضع حصانه في الإسطبل .. إذا بالسيد "باوندرباي" يظهر **فجأة ويصيح**:

- "هارتهاوس"! هل سمعت الأنباء؟
- أية أنباء يا سيدي؟
- لقد سرق مصرفي؟
- مستحيل!
- بل واقع، لقد سرق الليلة الماضية – يا سيدي – بواسطة مفتاح مصطنع.
- وكم يبلغ المبلغ المسروق؟
- إن هذا لا يهم يا رجل! إنه .. ليس كبيرا في الحقيقة، ولكن.. كان من الممكن أن يكون كبيراً جداً.

ولكن هارتهاوس أعاد السؤال في إصرار:

- كم؟
- حسناً، ليس أكثر من مائة وخمسين جنيهاً، ولكن الكم ليس مهما على الإطلاق، فالشيء المهم هو.. الواقع.. إن مصرفي قد سرق!
- أجل.. أجل بالطبع، ولكني سعيد لأن المبلغ ليس كبيراً

فقال "باوندرباي" بضيق:

- أشكرك! ربما أصبح المبلغ المسروق عشرين ألفا لو أن اللص لم يضطرب، إنني المصرفي الأول في **كوكتاون** .. يا سيدي!

وهنا وصلت "لويزا" وبصحبتها مسز "سبارسيت" و"بيتزر" فاستأنف "باوندرباي" كلامه:

- ها هي ابنة "جرادجريند" .. لقد سقطت مغشياً عليها عندما أخبرتها

كان وجه "لويزا" يبدو شديد الشحوب، فذهب إليها "جيمس هارتهاوس" ومد له ذراعه لتتأبطه بينما أخذ "باوندرباي" – باستياء – ذراع مسز "سبارسيت" ومشى الجميع إلى البيت بينما **قال "هارتهاوس":**

- مستر "باوندرباي" .. كيف حدث هذا الشيء المروع؟!

فصاح "باوندرباي" بغيظ:

- كنت أحاول أن أخبرك، ولكنك كنت مهتماً فقط بكمية المال المسروق! حسناً، أمس مساء أغلقنا كل شيء كالمعتاد، كان هناك الكثير من المال في الغرفة المحصنة، وكان لدى "توم الصغير" خزانة حديدية صغيرة في مكتبه، وهذه الخزانة كانت تحتوي على مائة وخمسين جنيها..

فقاطعه "بيتزر" قائلاً:

- بل مائة وأربعة وخمسين جنيها وسبعة شلنات يا سيدي.

فكاد "باوندرباي" أن ينفجر وصرخ في وجه "بيتزر":

- لا تقاطعني يا "بيتزر"! لقد سرقت لأنك كنت تغط في نوم عميق! المهم، أغلق "توم الصغير" خزانته على مبلغ مائة وخمسين جنيهاً ثم راح "بيتزر" في النوم على سريره الموضوع أمام الغرفة المحصنة، وفي الليل جاء اللص – أو اللصوص – وكسروا الخزانة وسرقوا المال، ثم أثار شيء ما اضطرابهم ففروا وتركوا المكان عن طريق الباب الرئيسي الذي فتحوه بمفتاح مصنع وقد وجد المفتاح ملقي في الشارع هذا الصباح، ولكن شيئاً ما يقلق هذا الشخص .. "بيتزر"! حتى السابعة صباحاً! عندما رأى باب خزانة "توم" المفتوح، كان القفل مكسوراً والخزانة خاوية!

تلفت السيد "هارتهاوس" ثم تساءل:

- وأين "توم" الآن؟

فأجابه السيد "باوندرباي":

- كان يساعد الشرطة وهو الآن ينهي عمله اليومي في المصرف.
- وهل لدى الشرطة أية أفكار .. عن اللصوص؟

فانفجر "باوندرباي" صائحاً:

- بالطبع يا سيدي! فعندما يسرق "جوزيه باوندرباي"، لابد أن تكون لديهم أفكار! وهي سر في الوقت الراهن، ولهذا لا تتكلم عنها، إنه واحد من "الأيدي".

فقال "هارتهاوس" بتكاسل:

- أرجو ألا يكون صديقنا "بلا كبول"!
- بل هو، كنت قد حذرته من قبل .. عندما كان يريد إنهاء حياته الزوجية، وحذرته ثانية في الأسبوع الماضي..

فقالت "لويزا" في صوت خافت:

- لا يمكن أن يكون "بلا كبول"!

فصاح "باوندرباي":

- إنني أعرف هؤلاء الناس! أعرفهم جيداً، لقد غادر "بلاكبول" المدينة، لقد ذهب ولا أحد يعرف أين هو الآن، تماماً مثلما فعلت أمي بي عندما كنت صغيراً، ولكن.. ماذا فعل قبل أن يرحل؟

ابتسم "باوندرباي" ابتسامة صفراء، وقال:

- إن مسز "سبارسيت" تعرف الإجابة على هذا و"بيتزر" وبعض جيران المصرف، كلهم يعرفون الإجابة أيضاً.

فتساءل "هارتهاوس":

- ماذا فعل؟
- أخذ يراقب المصرف، ليلة بعد ليلة، لقد مكث بجوار البنك يراقب وينتظر.
- إن هذه قرينة ضده.
- ولكن "بلاكبول" ليس اللص الوحيد فقد كانت هناك امرأة عجوز أيضاً، رآها الناس وهي تراقب بيتي ومصرفي، كانت تقف أمام بيتي عندما جاءنا "بلاكبول" الأسبوع الماضي، ثم رحل كلاهما معاً.

وهنا تذكرت "لويزا" المرأة العجوز التي رأتها في غرفة "بلاكبول".

وأضاف "باوندرباي":

- يجب علينا أن نلتزم الهدوء، ولكننا سنمسك بهم، لا يمكن أن يفلتوا من "جوزيه باوندرباي"!

فقال "هارتهاوس":

- يجب أن يعاقبوا بكل قسوة القانون، فمن يسرقون المصارف يجب أن يتلقوا أقسى العقاب!

تحول "باوندرباي" إلى زوجته وقال لها:

- "لوو"، إن هذه المشكلة قد أرهقت مسز "سبارسيت"، أعملي على راحتها هنا.

فقالت مسز "سبارسيت":

- شكراً جزيلاً سيدي، ولكن لا تؤرق نفسك بشأن راحتي، فإن أي شيء سوف يريحني.

وهكذا، بدأت مسز "سبارسيت" تمارس نظرات الشفقة على السيد "باوندرباي" وكم كانت سعادتها بهذا وكانت تشاركه لعب الورق، كما كانا يفعلان عادة، وكانت تصنع له مشروبات ساخنة خاصة في الليل، كانت في

الواقع تتصرف كأم له، ولم يكن يبدو على "لويزا" أنها تلاحظ السيدة مطلقاً، عاد "توم الصغير" متأخراً هذا المساء، كان الكل تقريباً نائمين فيما عدا "لويزا" التي ما إن سمعت وقع أقدامه على درجات السلم حتى توجهت بهدوء إلى مخدعه.

كان "توم" على وشك أن ينام عندما لفته "لويزا" بذراعها، فتحرك محاولاً النهوض **وهو يقول في فزع:**

- من هناك؟ من.. ما الخبر؟

فقالت "لويزا":

- "توم" العزيز، أليس لديك ما تود أن تخبرني به؟
- ماذا تقصدين يا "لوو"؟.. هل كنت تحلمين؟
- عزيزي "توم"، لا تخفي عني أي شيء، فلن يغير أي شيء من حبي لك.. قل لي الحقيقة!
- ماذا تريدين أن تعرفي؟

احتضنته "لويزا" بقوة وقالت له بحنان:

- لن ألومك أبداً، يا "توم"، بل سأنقذك.. أيا كان الثمن، أليس عندك ما تود أخباري به؟.. فقط قل: "أجل" وسأفهم..
- أنا لا أفهم ما تقصدين يا "لوو"، إنك فتاة شجاعة وطيبة وتستحقين أن يكون لك أخ أفضل مني ولكن .. عودي إلى فراشك الآن .. عودي إلى فراشك!

ولكنها سألته:

- هل اكتشفت الشرطة شيئاً جديداً؟
- لا.. فقط ما خبرك به "باوندرباي" العجوز.

- هل أخبرت أي إنسان بأمر زيارتنا لغرفة "بلاكبول"؟
- لا، لقد طلبت مني أن أحفظ هذا الأمر سراً..
- نعم، فلم أكن أتصور وقتها أن هناك من يخطط لسرقة المصرف..

فقال "توم" بسرعة وكأنه ينفي تهمة:

- ولا أنا، فمن أين لي أن أتصور هذا؟
- هل يجب أن تخبر أحداً؟ هل يجب أن أخبر – أنا – أحداً بأمر تلك الزيارة؟
- لا تسأليني رأيي يا "لوو" ..! افعلي ما تشاءين فلم تكن الزيارة فكرتي.

ثم نهضت "لويزا" وقالت بصوت حازم:

- "توم"، هل تعتقد أن "بلا كبول" سرق المصرف؟!
- لا أعرف .. ربما فعل!
- كان يبدو رجلاً شريفاً.
- كان سعيداً أن أخذ منك نقوداً، لقد حادثته خارج الغرفة وقلت له أنه محظوظ بحصوله على هذين الجنيهين، هذا كل ما أعرف، ربما كان شخصاً طيباً جداً.
- أليس عندك شيء آخر تريد إخباري به؟
- لا شيء.. إنك لا تريدين مني أن أكذب عليك .. أليس كذلك؟
- لا بالطبع.. لا أريد ذلك.
- حسناً، إذن عودي إلى مخدعك الآن فأنا متعب.. تصبحين على خير يا "لوو"..

بعد ذهابها قام "توم" بسرعة وأغلق باب حجرته بالمفتاح ثم ألقى بنفسه على سريره وأجهش بالبكاء!!

- 17 -

استطاعت مسز "سبارسيت" أن تحتل مكان "لويزا" في منزل السيد "باوندرباي" الصيفي، وإن كان ذلك لم يسبب أي قلق لـ"لويزا" **فقد اعتادت أن تقول لمسز "سبارسيت":**

- إن هذا لا يهم يا مسز "سبارسيت"، إنك تستمتعين برعاية السيد "باوندرباي"!

وفي الحقيقة فقد كانت مسز "سبارسيت" ترعى سيدها باهتمام بالغ فهي تقدم له وجباته وتنظف له ملابسه، وعند مغادرته المنزل تحضر له قبعته وقد اعتادت أن تقبل يده **وهي تهمس:**

- إنك عطوف يا سيدي! عطوف جداً.

ولكنها – وبعد أن يغادر البيت – كانت تحرك قبضتها في اتجاهه وهي تقول بغيظ:

- أوه أيها الوغد، إنك تستحق هذه الزوجة التي لديك، أنا سعيدة أنها كانت من نصيبك!

أصبح السيد "باوندرباي" ومديرة منزله أكثر قرباً من بعضهما – حتى أكثر من ذي قبل – وترتب على هذا أن أصبحت "لويزا" أكثر قرباً من السيد "هارتهاوس".

وفي صباح أحد الأيام وفي الساعة العاشرة تماماً حمل "بيتزر" رسالة من **كوكتاون**، إن السيدة "جرادجريند" تحتضر ويجب على "لويزا" أن تذهب إلى **ستون لودج** في الحال.

كانت قد ذهبت إلى بيت أبيها مرتين فقط منذ زواجها، والسيد "جرادجريند" يكون عادة في لندن، كما أن مسز "جرادجريند" لا تحب

الزيارات، في هذه المرة أحست "لويزا" أن المكان مختلف مما جعلها تشعر ببعض الغيرة فقد كان يملأ المكان مزيد من الحب أكثر مما عرفته في حياتها كلها .. لقد كانت كلمات "سيسي جوب" الحنونة ونظراتها الرقيقة هي التي غيرت "**ستون لودج**"

منذ زواجها.. لم تتكلم "لويزا" مع "سيسي جوب" ولكن مسز "جرادجريند"، والأطفال الأصغر من "لويزا" و"توم" كانوا يحبون "سيسي" حباً جماً، والآن بلغت "جين جرادجريند" عشرة أو اثني عشرة عاماً من العمر وكان لوجهها وأسلوبها في الحياة جمال ورقة يعادلان ما لوجه وأسلوب "سيسي".

كان صوت مسز "جرادجريند" ضعيفاً، وكانت معها رسالة للسيد "جرادجريند" طلبت من "لويزا" أن تعطيها له حينما يعود .. **وقالت لابنتها في صوت أضعفه المرض:**

- لقد تعلمت الكثير في حياتك يا "لويزا" وكذلك أخوك .. ولكن هناك شيئاً فات على أبيك أو نسيه، وقد كنت دائماً أفكر فيه.

وازداد صوتها ضعفاً **وهي تقول:**

- عندما تكون "سيسي" معي ولكني لم أستطع أن أتذكر اسمه .. ربما استطاع والدك بل يجب عليه .. لأجل الله .. أن يعرفه..

ثم سكت الصوت للأبد .. ولم تتكلم مسز "جرادجريند" ثانية .. ماتت في عصر هذا اليوم قبل أن يعود زوجها.

ومكثت مسز "سبارسيت" مع عائلة "باوندرباي" لعدة أسابيع، وأثناء وجودها معهم كانت تتخيل سلماً كبيراً في نهايته حفر مظلمة ينتظر فيها السيد "هارتهاوس"، بينما "لويزا" تهبط باستمرار في اتجاه.. حفرة العار..

في إحدى الأمسيات الدافئة كانت "لويزا" والسيد "هارتهاوس" يجلسان في الحديقة، كانا يتناقشان في موضوع "ستيفن بلاكبول" الذي مازالت الشرطة تبحث عنه، وكانت مسز "سبارسيت" تراقبها من نافذة مخدعها ولاحظت أن وجه السيد "هارتهاوس" يكاد يلمس شعر "لويزا"، ولم يكن باستطاعة مسز "سبارسيت" أن تسمع ماذا يدور في محادثتهما..

سألت "لويزا" "جيم" قائلة:

- ماذا تعتقد فيه يا سيد "هارتهاوس"؟
- أنه يتكلم كثيراً .. كثيرا جداً ربما.
- لقد بدا لي رجلاً شريفاً، ولكني لا أعرف شيئاً عن الرجال .. أو النساء.
- عزيزتي "لويزا".

وبدأ "هارتهاوس" يخبرها بأن الرجل كان غاضباً جداً وإنه وجه اللوم للسيد "باوندرباي" لما يحدث من متاعب في **كوكتاون** ولهذا ربما فكر بالفعل في سرقة المصرف .. بالإضافة إلى أن سرقة المصرف وسيلة سهلة للحصول على المال، وظلت "لويزا" صامتة لبعض الوقت **ثم قالت:**

- إني أتذكر وجه "بلاكبول" وطريقته. ولا يمكني في الحقيقة أن أوافقك على رأيك، ولكن عندما يتسنى لي أو أوافقك فإنني سأشعر أن عبء. ما قد انزاح عن قلبي.
- إن "توم الصغير" .. يوافقني، هل لنا أن نتمشى قليلا؟

وتمشياً داخل الحديقة.. كانت "لويزا" تتأبط ذراعه، لم تكن تعرف أنها تهبط إلى أسفل .. تهبط وتهبك إلى قاع السلم الذي تخيلته مسز "سبارسيت" والتي كانت تراقب وتنتظر أن تسقط "لويزا" في الحفرة.

عادت مسز "سبارسيت" إلى شقتها فوق البنك ولكنها استمرت في قضاء عطلات نهاية الأسبوع ببيت السيد "باوندرباي" الريفي، وبمرور أسبوعين

كان على السيد "باوندرباي" أن يسافر في عمل، وقبل أن يسافر أكد على مسز "سبارسيت" بألا تتأخر عن قضاء عطلة نهاية الأسبوع ببيته الريفي.

فقالت مسز "سبارسيت" بسعادة:

- أشكرك يا سيدي.. سوف اذهب بكل سرور.

بالطبع لم تقل شيئاً عن قاع السلم..

غادر السيد "باوندرباي" **كوكتاون** في صباح يوم الجمعة وفي عصر نفس ذلك اليوم دعت مسز "سبارسيت" "توم الابن" ليتناول الشاي معها، وعلى هذا وفي الساعة الرابعة تماماً عندما أغلق صيارفة المصرف خزاناتهم: هرول "توم" إلى أعلى .. إلى شقة مسز "سبارسيت" .. **فاستقبلته مسز "سبارسيت" مرحبة وهي تقول:**

- لقد فكرت أنك ربما تستمتع بوجبة صغيرة يا سيد "توم" .. خبرني كيف ترى حال السيد "هارتهاوس"؟!

فأجاب "توم" وهو يأكل بنهم:

- أوه أنه بخير حال .. على ما أعتقد، فقد كان متغيباً عنا الأيام القليلة الماضية.
- إنني معجبة به .. هل سيعود بسرعة؟
- غداً مساء .. سوف أقابله عند المحطة وسوف نتناول العشاء معاً في المدينة ولن يكون في البيت في نهاية هذا الأسبوع.

فقالت مسز "سبارسيت" بخبث:

- لسوء الحظ.. يجب أن أبقى هنا أنا أيضاً هذا الأسبوع، فهل تتكرم وتحمل اعتذاري للسيدة الرقيقة أختك؟!

- إذا تذكرت يا مسز "سبارسيت"، ولكن الأمر في الحقيقة لا يهم، فـ"لويزا" لن تفكر فيك إلا إذا رأتك.

بهذه الكلمات الرقيقة! شكر "الجرو" مسز "سبارسيت" على الشاي والطعام..

وفي مساء السبت، ارتدت مسز "سبارسيت" قبعتها ووضعت شالاً على كتفها، وخرجت في هدوء، وفي محطة القطار شدت الشال فوق قبعتها، كان "توم الابن" هناك أيضاً ولكنه لم يلحظ مسز "سبارسيت"، وجاء القطار .. ثم قطار آخر ولكن السيد "هارتهاوس" لم يصل بعد .. وأخيراً أحس بالتعب من الانتظار.. فغادر المحطة.

وقالت السيدة "سبارسيت" لنفسها:

- "إن "هارتهاوس" قد دبر الأمر! لقد أراد أن ينفي الأخ في المدينة .. ولهذا .. آه، "لويزا" .. إنها الآن في قاع السلم أو .. في الحفرة! لابد أن "هارتهاوس" معها الآن".

استقلت مسز "سبارسيت" القطار التالي الذي يغادر المحطة وبعد نصف ساعة عبرت حقلاً في اتجاهها للحديقة، كانت نوافذ البيت مفتوحة، فمشت مسز "سبارسيت" في هدوء وحذر حول الحديقة تراقب وتتسمع ولكنها لم تغادر منطقة الحشائش.

أخيراً سمعت أصواتاً خافتة .. صوته وصتها؟ .. لقد دبرا خطة لأبعاد الأخ عن البيت! وها هناك الآن .. كلاها! يجلسان على جذع شجرة ساقطة! وبهدوء شديدة اقتربت مسز "سبارسيت" ولكن ما هذه الضوضاء؟ حصان.. حصان "هارتهاوس"! إن لم يكن متجهاً للبيت بل كان يركبه متجهاً إليها! فأخذت مسز "سبارسيت" تتسمع الأصوات.

كان "هارتهاوس" يقول:

- ولكنك وحدك الآن يا أعز إنسانة ماذا يمكنني أن أفعل؟

فأجابت "لويزا":

- ليس هنا..

فلفها "هارتهاوس" بذراعه وقال لها:

- أين أذن يا حبيبتي.

فقالت مسز "سبارسيت" في نفسها:

- "آه .. حبيبتي! إنك لا تدري بمن يراقبك!".

قالت "لويزا":

- ليس هنا .. يجدب أن تدعني وحدي هنا!
- عزيزتي "لويزا" .. يجب أن نلتقي في مكان ما، لقد امتطيت جوادي مسافة خمسين ميلاً من أجلك... ولا أستطيع أن أتركك الآن.

فقالت "لويزا" وهي تحاول أن تنهض واقفة:

- بل يجب عليك..

ولكنه شدها بذراعه **وقال لها:**

- إنني أحبك يا "لويزا" .. ولا شيئاً آخر يهم؟

كان صوته يخفت أحياناً حتى يصبح همساً.. وكان يعلو أحياناً.

- لا يمكنك البقاء هنا بدون صديق.. لن أذهب إلا أتيت معي!

أجابته "لويزا" ولكن صوتها كان خافتاً جداً، وعندما سمعت مسز "سبارسيت" كلمة "الليلة" علمت أنهما يدبران للقاء الليلة، كان هذا كل شيء بعدها أطلق "هارتهاوس" العنان لجواده ولكن ليس إلى الإسطبل.

تتبعت مسز "سبارسيت" "لويزا" إلى البيت، كانت السماء قد بدأت تمطر ثم ازداد سقوط المطر فوقفت مسز "سبارسيت" تحت شجرة تفكر فيما عليها أن تفعله.

فجأة ظهرت "لويزا" ثانية .. كانت ترتدي معطفاً! فقالت مسز "سبارسيت" في نفسها: "إنها ستهرب معه.. أوه يا عزيزتي .. لقد سقطت في الحفرة".

أسرعت "لويزا" إلى محطة القطار وتبعتها مسز "سبارسيت" خلال الحشائش المبتلة، كان الظلام مخيماً والمطر يتساقط بقوة وغزارة، توقفت "لويزا" مرة .. فتوقفت مسز "سبارسيت" أيضاً .. ثم تابعت "لويزا" المسير، فحركت مسز سبارسيت قبضتها في الفضاء وتبعتها.

وفي المحطة غطت مسز "سبارسيت" قبعتها بشالها المبلل وسافرت السيدتان إلى **كوكتاون** في نفس القطار.. وطوال الرحلة كانت مسز "سبارسيت" تحدث نفسها قائلة: "يجب أن أتبعها" لأعرف أين سيلتقيان؟".

كانت **كوكتاون** غارقة في فيضان من الأمطار، اندفع حوالي خمسين أو ستين من الركاب من المحطة إلى خط العربات في الخارج، ولكن "لويزا" لم تكن هناك.. "إنها ما زالت في القطار.. إنها ذاهبة للمحطة التالية وسوف تقابله هناك" خطرت هذه الأفكار لعقل مسز "سبارسيت" فجرت عائدة للقطار وأخذت تعدو ولكنها لم تلحق بالقطار فغضبت وشعرت بخيبة الأمل .. ولم يكن في إمكانها أكثر من أن تنفجر في البكاء وهي تندب حظها قائلة: "لقد فقدتها"!

كان السيد "جرادجريند" في بيته في نهاية هذا الأسبوع، كان ينظر إلى العاصفة من خلال النافذة حينما انفتح باب الحجرة فاستدار بسرعة ليجد "لويزا" والتي بادرته قائلة وهي تخلع قبعتها.

- أبي.. يجب أن أتحدث إليك!
- "لويزا"! ماذا حدث؟ أنك مبتلة جداً. هل مشيت في هذا الجو العاصف؟

لم يبد عليها أنها لاحظت ملابسها المبتلة، فقد تركت معطفها يسقط على الأرض .. كانت شاحبة وترتعش، فأحس أبوها بالخوف عليها. وضعت يدها الباردة على ذراعه **وقالت:**

- أبي لقد ربيتني ودربتني منذ صغري..
- أجل يا "لويزا".
- إنك لم تمنحني شيئاً يجعل لحياتي مذاقاً طيباً، أين الحب الذي يجب أن يملأ قلبي؟ إن قلبي عبارة عن شيء فارغ .. هل تذكر آخر مرة تحدثنا فيها في هذه الحجرة؟

لم يكن السيد "جرادجريند" مستعداً على الإطلاق لسماع هذه الكلمات التي فاجأته بها ابنته **فقال بدون تفكير:**

- أجل يا "لويزا".
- كنت أتمنى أن تساعدني وقتها، أنا لا ألومك الآن، يا أبي، لا ألومك على أي شيء، فليس في إمكانك أن تعلم الآخرين أشياء أنت نفسك لا تعرفها. ولكن آه لو أنك علمتني الأشياء الصحيحة أو.. لو أنك لم تعلمني شيئاً.. لكانت حياتي أفضل ولكنت امرأة أكثر سعادة اليوم!

بعد هذه الكلمات، سقطت رأس السيد "جرادجريند" على صدره وقال في حنان:

- يا طفلتي المسكينة، لم أكن أعلم أبداً إنك غير سعيدة.
- أما أنا فكنت دائما أعرف، لقد تعلمت كل الأشياء الخاطئة يا أبي.. كان الشيء الوحيد الذي يريحني هو .. فكرتي بأن حياة الإنسان قصيرة جداً.
- ولكنك مازلت صغيرة يا "لويزا"!

- أجل يا أبي، فقد خططت ودبرت أمر زواجي.. اقترحت على زوجي، وأنا وافقت عليه لعلمي أني لاشيء يستحق المجادلة، كنت أعرف أني لا أحبه.. وكنت أنت أيضاً تعرف.. وهو يعرف أني لا أحبه، تزوجت لأني كنت أمل أن أستطيع مساعدة "توم".. "توم" الذي قاسمني حياتي التعيسة. كان الشخص الوحيد الذي أحبه وأشعر بالشفقة عليه.. وكان السبب وكان المهرب، إن هذا لا يهم الآن ولكنه قد يساعدك لتشعر ببعض الشفقة على "توم" يا أبي!

فاحتضن السيد "جرادجريند" ابنته وقال لها:

- ماذا يمكنني أن أفعل الآن يا ابنتي... أطلبي مني أي شيء تتمنيه..
- أنني احتاج إلى مساعدتك يا أبي، لقد أتخذت صديقاً.. إنه يختلف من أي رجل آخر عرفته في حياتي، إنه طيب القلب وله خبرة بالحياة، وهو لا يسعي لأن يصبح شخصاً هاماً، كما أنه يشاركني في بعض أفكاري ويظهر اهتماماً بي يا أبي..

فارتعش السيد "جرادجريند" وهو يقول في دهشة:

- اهتماماً بك يا "لويزا"؟!
- إنه يفهمني يا أبي.. يمكنه أن يقرأ أفكاري، وقد استطاع أن يفهم بسرعة كل الحقائق المتعلقة بزواجي.. أنني لم أرتكب أي خطأ يا أبي، ربما كنت تتساءل عما إذا كنت أحبه أم لا؟ حسنا، إني لا أعرفه ولكن يمكنني أن أقول لك ببساطة أني ربما أحبه...

سحبت ذراعيها من بين كتفي أبيها ثم.. وبصعوبة بالغة أنهت ما كانت تود أن تقوله:

- هذا المساء أخبرني أنه يحبني، وهو يتوقع أن أذهب لمقابلته.. وإني لا أعتقد أني آسفة أو خجلي .. أنا أعرف شيئاً واحداً .. هو أن تعليمك لي لن ينقذني يا أبي. يجب أن تحاول إنقاذي بطريقة أخرى..

وكادت تسقط لولا أن أمسكها أبوها فصرخت صرخة مرعبة وقالت:

- دعني أسقط!

فأرقدها أبوها على الأرض عند قدميه .. حيث شاهد كل كبريائه وكل حقائق أفكاره تتمرغ على الأرض!

- 18 -

استيقظت "لويزا" في الصباح التالي فوجدت نفسها في حجرتها القديمة في "**ستون لودج**".. كانت "سيسي" والخادمة قد حملتاها إلى سريرها ثم مكثت "سيسي" بالقرب منها جزءاً من الليل.

وفي الصباح.. دخلت "جين" – أخت "لويزا" الصغيرة – وأخذت تتحدث مع **أختها فسألتها قائلة:**

- هل أعجبتك حجرتك؟ أن "سيسي" حرصت على أن تحفظها نظيفة ومرتبة منذ أن غادرت البيت.

كانت "جين" – حسب اعتقاد "لويزا" – بنتا رقيقة وعطوفة، وفي أثناء حديث الأختين دخل السيد "جرادجريند" فانسحبت "جين" في هدوء.. ثم.. خيم الصمت والحزن على المكان، كان السيد "جرادجريند" يلوم نفسه على ما حدث لـ"لويزا" من متاعب، وقال إنه كان دائماً يعتقد أن أفكارها عن التربية أفكار صحيحة.

وبعد لحظات الصمت قال لـ"لويزا":

- ابنتي العزيزة، هل يمكن لإنسان أن يصبح حكيماً بطريقتين مختلفتين؟ بعض الناس يقولون هذا .. إنهم يقولون أن بمقدور القلب أن يكون حكيماً.. كالعقل تماماً. لم أصدق هذا القول أبداً ولكن .. ربما كنت مخطئاً.

كان شعر "لويزا" يفترش الوسادة فمد أبوها يدا حانية ومسح على شعرها واستأنف حديثه:

- إنني غالباَ ما أكون متغيباً هذه الأيام، وإن لدينا مدرساً هنا لتعليم الأطفال، أنهم يتلقون نفس التعليم الذي تلقيته تماماً. ولكن بالطبع كانت

"سيسي" معهم لوقت طويل، عزيزتي.. هل تعتقدين أن أختك الصغيرة "جين" قدر لها حظ من السعادة أكبر منك؟

- يا أبي .. إن وجهها يعطيك الإجابة على هذا السؤال، وهي إن قدر لها أن تتجنب الطريق الذي سرت فيه، فإنه يجب عليها أن تشكر ربها.
- بالرغم أنك يا ابنتي لم توجهي إلى أي لوم إلا أن من الواجب أن ألوم نفسي.

ثم أحنى رأسه وبدا يتكلم في صوت شديد الخفوت والهدوء:

- يبدو أن الحب قد غير أشياء كثيرة في هذا البيت، إن هناك أشياء لا يستطيع العقل أن يفعلها بينما يقوم بها القلب في هدوء، أليس هذا هو ما تعتقدين؟

أغلقت "لويزا" عينيها .. ولما لم تجب .. انسحب أبوها من الحجرة بهدوء، وتذكرت "لويزا" يوم أخبروا والدتها بأمر زواجها، كانت "سيسي" تجلس بجوار سرير السيد "جرادجريند"، وعندما سمعت، رمقت "لويزا" عينيها فجأة بنظرة.. ولم تنسى "لويزا" أبداً هذه النظرة.. نظرة إشفاق.. لم تنسها "لويزا" ولم تسامحها عليها والآن .. يبدو الأمر وكان (ابنة المهرج قد زرعت الحب في البيت و..).

أحست "لويزا" بيد دافئة تلمس رقبتها، لم تفتح عينيها ولكنها أحست بالدموع فيهما، ثم لامس خد ندى خدها فحاولت أن تستيقظ.. **فوجدت "سيسي" تقول لها في هدوء وعطف:**

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك، هل يمكنني أن أبقى هنا؟
- سوف تفتقدك أختي، وأنت كل شيء بالنسبة لها.
- وكم أتمنى ؟أن أصبح شيئاً بالنسبة لك.

فنهضت "لويزا" ووقفت بجوار سريرها وقالت لـ"سيسي":

- هل أرسلك أبي إلى هنا؟
- لا.. فقط قال ؟أن بإمكاني أن أراك، ولكن .. ربما لا ترغبين في بقائي معك.
- وهل تحسين بأني دائماً أكرهك إلى هذا الحد؟
- أتمنى ألا يكون، فأنا دائماً أحبك كثيرا، حقاً إن طريقتك معي تغيرت قبل أن تغادري البيت. ولكني لم أدهش حقيقة، فأنت ذكية جدا بينما أنا في منتهى الغباء..

وتورد وجه "سيسي" وأكملت:

- ولكني لم أتألم من هذا.

بل تألمت "سيسي" و"لويزا" تعلم هذا فأخذت يد الفتاة بين يديها وقالت:

- إنني مغرورة وقاسية.. غاضبة دائماً وظالمة لكل الناس حتى لنفسي.. ألا يجعلك هذا تكرهينني؟
- لا!
- إنني إنسانة تعسة لأني فقط بدأت أفكر في أبسط الحقائق وأحتاج لمن يعلمني الاحترام والشرف والحب، أفلا يجعلك هذا تكرهينني؟

فجثت "لويزا" على ركبتيها عند قدمي الفتاة وأمسكت بذيل ثوبها وأخذت تقول في استعطاف:

- أوه، سامحيني، يا "سيسي"! ارحميني وساعديني! دعيني اوسد رأسي على قلبك المملوء بالحب!

فقالت "سيسي" وهي تبكي وتضم رأس "لويزا" لصدرها:

- أجل ... أجل يا حبيبتي ضعي رأسك هنا!

كان السيد "جيمس هارتهاوس" ينتظر – في فندق **كوكتاون** – على أحر من الجمر، كان يتوقع رسالة من "لويزا" ولكن لم تأت أي رسالة، اعتذر لـ"توم الابن" عندما قابله في يوم الأحد، كان يبدو على "توم" القلق كان يشكو من أن "بيتزر" يتعقبه في كل مكان، كان السيد "باوندرباي" لا يزال متغيباً وكانت مسز "سبارسيت" قد غادرت المدينة سراً في عربة، ولا أحد يعرف إلى أين ذهبت.

في مساء الاحد أصبح "هارتهاوس" قلقاً هو الآخر، كان خائفاً أن يكون شخص ما قد اكتشف حقيقة ما بينه وبين "لويزا"، ربما كان حتى "باوندرباي" يعرف السر. كان "جيم" يتساءل هل سيكون عليه أن يصارع زوج "لويزا"!.. لم يكن "جيم" يتساءل عل سيكون عليه أن يصارع زوج "لويزا"!.. لم يكن جيم – في الحقيقة – يجيد استعمال قبضته! ... حاول "جيم" أن يتماسك ويحتفظ بهدوء.

"فلم تقلقه أية مصاعب أخرى، هكذا كان يقول في نفسه "فلماذا إذن تفسد هذه المشكلة الصغيرة عليه عشاءه"، وبالفعل.. تناول عشاء جيداً في حوالي السادسة ثم بدأ يقرأ كتاباً ثم .. وبعد نصف ساعة حضر إليه عامل الفندق وقال:

- سيدة شابة تأمل في رؤيتك يا سيدي؟
- رؤيتي؟!

ثم نهض بسرعة واقفاً وقال:

- دعها تدخل يا رجل!

فدخلت الغرفة امرأة شابة لم يرها "هارتهاوس" من قبل، كانت بسيطة في ملبسها هادئة ورائعة الجمال، **ثم قالت:**

- هل أنت السيد "هارتهاوس"؟
- أجل أنا.

ثم قال في نفسه:

- "بالتأكيد هذه أجمل عيون رأيتها في حياتي".
- إن رسالتي سرية يا سيدي، هل يمكنني أن أعتمد عليك في حفظ السر؟
- يمكنك.
- ربما قد خمنت من أكون؟

فقال هارتهاوس في نفسه:

- "لها صوت جميل أيضاً!: ثم قال لها:
- إنني في قلق منذ البارحة بشأن سيدة فاضلة فهل أتيت من عندها؟
- نعم!
- أين هي؟
- في منزل أبيها فقد أسرعت إلى هناك تحت المطر والرياح ليلة الأمس، إنني أعيش هناك أنا أيضاً وقد قضيت الليلة بجانبها، وتستطيع أن تتأكد يا سيدي أنك لن تراها ثانية.

فأخذ السيد "هارتهاوس" نفساً عميقاً وحاول أن يفكر بذهن صاف، هذه الفتاة صغيرة جداً وهي تقول الحقيقة كما تفهمها، وهو متأكد أنها لا تكذب، **فقال:**

- إنني حقيقة في ذهول.. هل أعطتك السيدة هذه الرسالة اليائسة لي؟
- لا .. إنها لم تفعل
- إذن، فربما لن تكون هذه هي رغبتها؟ وربما سأراها ثانية؟

- ليس هناك أدنى أمل، يجب أن تصدق هذا يا سيدي!
- يجب أن أصدق؟! ولكن ماذا إن لم أكن أستطيع أو لم أكن أريد أن أصدق؟
- لن يغير هذا من أن هذه هي الحقيقة، ليس هناك أي أمل مطلقاً!

فابتسم السيد "هارتهاوس" لها ولكن ابتسامته ضاعت، فقد كان عقله يحلق في مكانه بعيد عنه ثم قال:

- حسناً، يبدو أنك واثقة من الامر تمام الثقة ولكن السيدة الفاضلة لم ترسلك وهذا أيضاً صحيح، أليس كذلك؟
- إن حبي لها هو الذي جاء بي إلى هنا، وحبها لي يساعدني في توجيه خطواتي، فأنا أعرف قلبها وعقلها.. وقد أخبرتني ببعض الأمور عن زواجها، أوه، سيد "هارتهاوس" لقد أخبرتك أنت أيضاً.. لأنها وثقت بك.

وأحس "هارتهاوس" بأن نوعاً من الألم قد مس المكان الذي من المفروض أنه به قلبه **وقال بلهجة ذات مغزي:**

- إن من يثقون بي.. ربما كانوا غير حكماء إن والد هذه السيدة "آلة" وأخاها "جرو" وزوجها "دب"، وإذا كنت قد تسببت لها في أي اذى فيمكنني أن أقول – فقط – إنني لم أكن أرغب مطلقاً في إيذائها، والآن أيتها السيدة الشابة، أنت تلومينني،أنك تعنين بكلامك أني قد فعلت شيئاً خاطئاً وإني أقبل هذا منك .. وإن كنت لا أقبله من أي إنسان آخر. لا أعتقد أن أسلوبي في الحياة سيتغير ولهذا يجب على أن أتعود الوضع الجديد .. فربما لن أرى السيدة ثانية.

فردت عليه "سيسي" برقة ولكن بحزم:

- سيد "هارتهاوس"، يجب عليك أن تصلح ما أفسدت..يجب أن تغادر هذه المدينة في الحال ولا تعود إليها ثانية، إن هذا ليس تضحية كبيرة عليك..

وهو لن يكفي ولكنه – على أي حال – شيء أفضل من شيء .. كما أنه ضروري جداً.. وسيبقى سراً بيننا ياسيد "هارتهاوس"، غادر **كوكتاون** الليلة ولا ترجع أبداً!

- ولكن .. ولكنني هنا في مهمة شعبية، أنا أعرف أن هذا غباء ولكنني سأرشح نفسي للبرلمان وهذا واقع!
- يجب أن ترحل الليلة يا سيد "هارتهاوس".
- فكري في العار!..

ثم صمت برهة وعاد يقول:

- إذا رحلت.. فهل سيبقى السبب سراً؟
- سوف أثق بك يا سيدي، وسوف تثق بي..

أخذ "هارتهاوس" يتمشى في الغرفة لعدة دقائق مستغرقاً في التفكير ثم عاد ثانية لـ"سيسي" **وقال وهو يضحك:**

- إن ما قدر له أن يكون حتماً سيكون، وهذا الأمر سيكون على ما أعتقد، لقد وجهت إلى ضربة موجعة يا سيدتي الشابة، فهل لي أن أعرف اسم عدوي؟!
- اسمي يا سيدي؟
- أجل، أنه الاسم الوحيد الذي أود معرفته الليلة.
- "سيسي جوب"!
- هل أنت قريبة السيدة؟
- لا .. إنما أنا ابنة مهرج السيرك، وقد تركني أبي فأشفق على السيد "جرادجريند"، وأنا أعيش في بيته منذ ذلك الوقت.

ثم غادرت الغرفة ....

فألقى السيد "هارتهاوس" بجسمه فوق المقعد وهو يقول لنفسه: "هذا يكمل حلقة العار .. ابنة مهرج سيرك وتلف "جيمس هارتهاوس" حول أصبعها الصغير!"

ثم جلس وكتب رسالة صغيرة لأخيه قال فيها:

"إنني مللت الحياة في **كوكتاون** وقد قررت أن أسافر إلى **مصر**، سأكتب لك ثانية من **القاهرة**، "جيم"".

ولم تمض الساعة إلا وكان السيد "هارتهاوس" في القطار المتجه إلى لندن..

- 19 -

عرفت مسز "سبارسيت" أن السيد "باوندرباي" في لندن، فسافرت إليه في صباح الأحد وقابلته في فندقه، قالت أن زوجته قد هربت بصحبة السيد "هارتهاوس" .. وعاد المصرفي ومديرة منزله إلى **كوكتاون** في مساء هذا اليوم، واتجه مباشرة إلى "ستون لودج" واندفعا إلى غرفة مكتب السيد "جرادجريند".

وبادر "باوندرباي" "توم جرادجريند" قائلاً:

- والآن يا "توم جرادجريند" .. اسمع فإن لدي مسز "سبارسيت" ما تقوله لك عن ابنتك الذكية.

فأصاب الذهول السيد "جرادجريند" وقال مخاطباً "باوندرباي":

- لقد كتبت لك بالامس يا "باوندرباي"! أنت لم تتسلم رسالتي بالطبع!..

فصرخ "باوندرباي":

- إن هذا ليس وقت الرسائل يا سيدي .. قولي له ما أخبرتني به!

كان الإعياء قد أصاب مسز "سبارسيت" من جراء الخوض في العاصفة فلم تستطع إلا أن تخرج بعض الأصوات الواهنة غير المفهومة مما آثار غضب السيد "باوندرباي" **فصرخ:**

- اسمع يا "توم جرادجريند" لقد استمعت مسز "سبارسيت" لمحادثة بين ابنتك وصديقك "جيمس هارتهاوس" .. لقد سمعت أن..

فقاطعه "جرادجريند":

- لست بحاجة لترديد ما سمعته، فأنا أعرفه!

فصرخ "باوندرباي" في دهشة:

- تعرفه! وهل تعرف أين ابنتك الآن؟

- بالتأكيد! أنها هنا...!
- هنا؟!

فقال "جرادجريند" بنفاد صبر:

- "باوندرباي" .. أرجوك لا تصرخ ثانية، لقد هرعت "لويزا" إلى هنا بمجرد أن استطاعت التخلص من "هارتهاوس"، ثم جاءت إلى البيت، رغم العاصفة الشديدة، وهي الآن مريضة وملازمة للفراش منذ ليلة الأمس.

فاستدار "باوندرباي" غاضباً إلى مسز "سبارسيت" وقال لها:

- والآن .. أيتها السيدة .. فإننا نكون سعداء سماع اعتذارك، إن كان قصتك كانت محض هراء!

فقالت مسز "سبارسيت" باكية:

- سيدي.. سيدي، إنني مريضة ولا أستطيع أن أقول شيئاً الآن.
- حسنا يا سيدتي.. إن العربة ما زالت بالباب، عودي إلى شقتك، وانعمي بحمام ساخن.. ثم اذهبي إلى فراشك!

قال "باوندرباي" هذا ثم أخذها من يدها إلى الخارج حيث تقف العربة، وبعد دقيقة عاد بمفرده **وقال لـ"جرادجريند" في خشونة:**

- والآن – "جرادجريند" – أرجوك اشرح لي كل شيء.
- أخشى.. أننا لم نستطع أبداً أن نفهم "لويزا".
- تكلم عن نفسك فقط يا "جرادجريند"، فأنا كنت دائماً أفهمها.
- إذن لنقل.. إني لم أفهمها، وقد ارتكبت أخطاء جسيمة في تربيتها.
- بالتأكيد! إنني لا أؤمن بأي طريقة في التربية .. خلاف اللكمات يا سيدي، لكمات قوية وعصا قاسية!

- إن هذا مستحيل في التعامل مع امرأة شابة يا "باوندرباي"!!

فتساءل "باوندرباي":

- ما هو هذا المستحيل؟
- أوه إن هذا لا يهم الآن، يجب علينا أن نحاول إصلاح الضرر الواقع، وأنا أحتاج مساعدتك فأنا جد تعس لما أصاب "لويزا"..
- لن أعدك بشيء يا "جرادجريند"..
- كل ما أرجوه هو .. أن تترك "لويزا" وحدها لفترة، الرعاية والحب سوف يعطيان أفضل النتائج.. لقد كانت دائماً أفضل أطفالي.

فأحمر وجه "باوندرباي" وقال:

- هل تريد أن تستبقيها هنا؟!
- يمكننا أن نعتبرها في زيارة لنا، إن "سيسي" – أعني "سيسيليا جوب" – تفهم "لويزا"، و"لويزا" تثق فيها.
- اسمع يا "جرادجريند"، إنني "جوزيه باوندرباي" .. وجية **كوكتاون**، وكون ابنتك زوجتي .. يعتبر شرفاً لا تستحقه!.. ما الذي ترجوه من هذه الزيارة؟
- لقد أخبرتك.. إن "لويزا" غير سعيدة، وأرجو أن تعمل على إسعادها.. هل هذا كثير؟! إنك تكبرها سناً بكثير، وأنا قد قبلت.

فقاطعه "باوندرباي" غاضباً:

- أنا أعرف هذا.. وتلك مشكلتي وحدي
- لقد ارتكبنا – كلنا – أخطاء يا "باوندرباي"، ويجب علينا أن نفعل شيئاً لتصحيحها، وسيكون عطفاً منك لو أنك قبلت خطتي.

- أنا لا أوافق يا "جرادجريند"، ولكني لن أتشاجر معك، ولكن .. يجب على صديقك "هارتهاوس" أن يغادر **كوكتاون** قبل أن أصادفه في طريقي .. بالطبع يجب على ابنتك أن تعود إلي بيتها.. بيتي..سوف انتظرها غدا ظهراً، وإذا لم تأت.. يمكنها – إذن أن تبقى بعيدة للأبد.
- أرجوك يا "باوندرباي".. بل إني أتوسل إليك أن تفكر ثانية.
- لا يا سيدي، إن "جوزيه باوندرباي" لا يتنازل عن رأيه، إن هذا هو كل ما أود أن أقوله لك. تصبح على خير.

وعاد السيد "باوندرباي" إلى بيته في مدينة **كوكتاون**.. ولم تأت "لويزا" في ظهر اليوم التالي. وفي الظهر تماماً أعطى "باوندرباي" أمر لخدمة بأن يجمعوا ملابس "لويزا" في صناديق وأرسلها إلى **ستون لودج** وبعد عدة أيام.. عرض السيد "باوندرباي" بيته الريفي للبيع، وقد أعطاه هذا التغيير الجديد في حياته مزيداً من الوقت للعمل.

كان قد عفا عزمه على العثور على من سرقوا مصرفه ولم يكن مسموحاً لرجال الشرطة بالراحة من الجهد المتصل حتى يقبضوا على اللصوص.. لم تكن هناك أنباء عن "ستيفن بلاكبول". كما أن لغز المرأة العجوز بقى لغزا، وأعطى السيد "باوندرباي" وعدا بأن يمنح عشرين جنيها لمن يدله على مكان "بلاكبول".

كانت "راشيل" في شدة القلق، أما "سلاكبريدج" الرئيس المحترف لنقابة العمال – فكان سعيداً فإذا ثبت أن "بلاكبول" لص.. فلا "سلاكبريدج" يصبح على حق في كل ما قال!

عندما سمعت "راشيل بأمر الجائزة .. ذهبت إلى بيت السيد "باوندرباي"، ثم .. وفي إحدى الأمسيات وصل ثلاثة زوار إلى **ستون لودج** .. السيد

"باوندرباي" "راشيل" "وتوم الابن" أخذتهم "سيسي" إلى حجرة السيد "جرادجريند"، حيث كانت "لويزا" تتحدث مع والدها.

ووقف "توم الابن" في ركن مظلم بجوار باب الحجرة، وبدأ السيد "باوندرباي" الكلام **قائلاً**:

- أرجو ألا يكون قد أزعجتك.. هذه المرأة.. (وأشار إلى "راشيل") وقد تكلمت معي، و"توم جرادجريند" – ابنك رفض أن يعلق بشيء! ربما كان باستطاعة مسز "باوندرباي" أن تخبرني بالحقيقة.

وقفت "راشيل" أمام "لويزا" وقالت:

- لقد رأيتني مرة من قبل يا سيدتي الشابة..

فسعل "توم الابن"، فعادت راشيل كلامها:

- لقد تقابلنا من قبل أليس كذلك؟

فسعل "توم" ثانية..

فأجابت "لويزا":

- نعم التقينا.
- هل يمكن أن توضحي سبب لقائنا، ومن كان حاضراً في هذا اللقاء؟
- لقد التقينا في غرفة "ستيفن بلاكبول" .. كان هذا بعد أن غادر بيت السيد "باوندرباي"، وقد رأيتك هناك مع "بكلابول". كما كانت هناك امرأة عجوز– أيضاً – كما أن أخي "توم" كان يصحبني.

وهنا تساءل "باوندرباي" قائلاً وموجهاً الكلام لـ"توم" الابن:

- لماذا لم تستطع أن تقول هذا "يا توم"؟!

قال "توم":

- لقد وعدت أختي بألا أفعل.

استأنفت "راشيل" حديثها قائلة:

- سيدتي الشابة الطيبة، هل يمكنك أن تقولي لماذا جئت لغرفة "ستيفن بلاكبول"؟
- كنت حزينة لأجله، وأردت أن أقدم له بعض المساعدة.

فقال "باوندرباي" في غضب مكتوم:

وتساءلت "راشيل":

- كم عرضت عليه يا سيدتي..؟
- أربعة جنيهات.. ولكنه أخذ جنيهان فقط.

فنظرت "راشيل" في كبرياء إلى السيد "باوندرباي" فصاح "باوندرباي":

- أوه.. نعم يا سيدتي، يبدو أنه يجب على أن أصدق بعض الهراء الذي أخبرتني به.

فأخذت "راشيل" تبكي وهي تقول لـ"لويزا":

- إن "ستيفن بلاكبول" رجل شريف.. ولكن..كل من في المدينة يظنون أنه سرق المصرف. إن هذا غير صحيح! أنا أعرف أنه غير صحيح.

فقالت "لويزا":

- إنني في غاية الأسى.

فقالت "راشيل":

- أنه سيعود ثانية.. غداً أو بعد غد، كان عليه أن ينتحل اسماً آخر ليجد عملاً. ولكني كتبت إليه وسيعود وسوف يثبت أنه برئ.

فضحك "باوندرباي" وقال:

- خبرينا باسمه الجديد! خبرينا أين هو؟!

فاستمرت "راشيل" في البكاء **وقالت:**

- إن هذا ليس عدلاً، إن "ستيفن" لم يرتكب ذنباً! إذا أخبرتك بمكانه، إذن لذهب أحدهم وأحضره.. ألا نفهم؟! ليس هناك داع لاصطياده.. سوف يأتي بنفسه...

بعد دقائق معدودة غادر السيد "باوندرباي" و"توم الابن" (**ستون لودج**).. وطوال هذا الحوار السابق لم يتفوه السيد "جرادجريند" أو "سيسي" بكلمة واحدة.

والآن توجهت "سيسي" بالحديث إلى "راشيل" قائلة:

- هل يعلم "ستيفن" بسبب ظن الناس به السوء؟
- لقد أخبرته أن هؤلاء الناس رأؤه يراقب المصرف، أنا لا أعرف لماذا ذهب إلى هناك، فلم يكن هذا المكان قريباً من بيته.

وعرضت "سيسي" أن تذهب إلى بيت "راشيلط في اليوم التالي لترى ما إذا كان "ستيفن" قد عاد، على أن تحمل الأخبار إلى **ستون لودج**، ووافق الجميع على هذه الخطة، ثم عادت "راشيل" إلى بيتها.

وعندما رحلت راشيل سأل "جرادجريند" ابنته بنبرة حنون قائلاً:

- "لويزا" .. عزيزتي.. هل تعتقدين أن "بلاكبول" قد سرق المصرف فعلاً؟
- لا يا أبي أنا واثقة من أنه رجل شريف.
- وهكذا تعتقد المرأة أيضاً، ولكن هل يعرف اللص الحقيقي ماذا يقول الناس؟ أين هو اللص الحقيقي؟ من يكون؟

لاحظت "لويزا" تلك النظرة التي أطلت من عيني "سيسي" – كانت تعرفها من قبل – نظرة حب ورثاء.

ثم جلست "لويزا" بجوار مقعد أبيها.

ومر اليوم التالي، والذي يليه ولم يحضر "بلاكبول" وفي اليوم الرابع ذهبت "راشيل" إلى بيت "باوندرباي" ثانية، وبالرغم من أنها ما زالت تثق ثقة تامة في "ستيفن" فقد أعطت اسمه الجديد وعنوانه للسيد "باوندرباي". كان "ستيفن" يعيش في مدينة تبعد عن **كوكتاون** ستين ميلاً.

وتم إرسال الرجال ليحضروا "ستيفن بلاكبول"، بينما بقى "توم الابن" ملاصقاً لـ"باوندرباي" – كان في غاية الإثارة.. يكاد أن يكون مريضاً، لم يكن يستطيع الكف عن قضم أظافره، وعاد الرجال بدون "ستيفن"، وقيل أن "بلاكبول" لابد قد تسلم رسالة "راشيل" وفر هارباً في الحال، ولا أحد يعرف إلى أين ذهب..

ومر أسبوع ولم يظهر "ستيفن"، فبدأ على "توم الابن" أنه قد وجد قدراً جديداً من الشجاعة، كان يقول للناس، بالطبع "بلاكبول" هو اللص، إذا لم يكن هو اللص فماذا إذن لم يعد؟!

ولكن أين "بلاكبول"؟ ولماذا لم يعد؟!

أخذت هذه الأسئلة تطن في أذن "توم الابن" طوال الليل!

- 20 -

لم يعد "ستيفن بلاكبول" .. ومازالت الشرطة تبحث عنه، كانت "سيسي" تذهب لبيت "راشيل" كل مساء تقريباً، ولكن لم تكن ثمة أخبار جديدة. أصبحت "راشيل" سعيدة لأنها أخيراً عثرت على صديقة تثق بها و"بستيفن". وقد حملت "سيسي" الحب والسلوى معها وسرعان ما صارت المرأتان صديقتين حميمتين. وبعد هذه المقابلات، كانت "راشيل" تمشي مع "سيسي" نصف طريق عودتها للبيت في كل ليلة وفي إحدى المرات شاهدتها مسز "سبارسيت" وهما تمشيان معاً في الشارع.

في اليوم التالي – أثناء وقت الغذاء – زارت مسز "سبارسيت" "راشيل" في بيتها وسألتها بعض الأسئلة التي حاولت "راشيل" أن تجيب عليها، ثم في صباح اليوم التالي – الجمعة – غادرت مسز "سبارسيت" **كوكتاون** بالقطار في ساعة مبكرة.

وفي مساء نفس اليوم ذهبت "سيسي" إلى بيت "راشيل"، وكالعادة.. لم تكن هناك أية أخبار عن "ستيفن"، ولكن الفتاتين تجاذبتا أطراف الحديث لبعض الوقت ثم تواعدنا على اللقاء صباح الأحد، فقد فكرت "سيسي" أن "راشيل" ربما تحتاج لنزهة في الخلاء، فالهواء الطلق سيكون مفيداً لها، وفي السابعة غادرت "سيسي" وبصحبتها "راشيل" بيت "راشيل" وسارتا في اتجاه **ستون لودج..**

لابد أن القطار قد وصلا الآن.. لأن هناك عربات كثيرة تجري في الشارع تحمل القادمين من أو الذاهبين إلى المحطة وفي سيرهما مرتا – "راشيل وسيسي" – بيت السيد "باوندرباي" حيث توقفت عربة أمام الباب ونزلت منها مسز "سبارسيت" التي ما إن رأت الفتاتين حتى **صاحت:**

- هذه فرصة عظيمة! يجب أن تربا هذا!

ثم صرخت آمرة:

- انزلي.. انزلي وإلا القينا بك خارج العربة!

ونزلت من العربة سيدة عجوز أمسكت مسز "سبارسيت" بتلابيبها وقالت:

- لا تمسوها .. أنا التي أمسكت بها، ادخلي يا سيدتي.. إلى البيت وإلا.. وإلا دفعناك للداخل بالقوة!

ودخلت مسز "سبارسيت" والسيدة العجوز وأناس آخرون كثيرة إلى بيت السيد "باوندرباي" لقد تعرفت "راشيل" على السيدة!.. إنها مسز "بيجلر"! وتذكرت "راشيل" أسئلة مسز "سبارسيت".

قالت مسز "بيجلر" بعض الكلمات بصوت خافت، وردت عليها مسز "سبارسيت" **قائلة:**

- لا! لن أدعك تذهبين!

ثم نادت بأعلى صوتها:

- يا سيد "باوندرباي"! يا سيد "باوندرباي"!

وما إن دخل السيد "باوندرباي" إلى القاعة حتى أصابه الذهول.. هو والسيد "جرادجريند" و"توم الابن" اللذين كان بصحبته.

وبعد لحظات قال السيد "باوندرباي":

- مسز "سبارسيت" يا سيدتي.. ماذا يحدث هنا؟!

فأجابت مسز "سبارسيتط بتفاخر:

- سيدي لقد وجدت الشخص الذي تبحث عنه.. صديقة "بلاكبول"، لم تكن تريد المجئ.. لكن ..

ثم دفعت مسز "سبارسيت" مسز "بيجلر" للأمام. فأحمر وجه "باوندرباي" ثم تحول إلى اللون الأزرق **ثم صاح:**

- مسز "سبارسيت"! ماذا يعني هذا؟!

- سيدي، إنها المرأة العجوز!
- إن هذا الأمر يعنيني وحدي، فلماذا تدسين أنفك فيما يعني عائلتي فقط؟

فارتمت مسز "سبارسيت" على المقعد بعنف وأخذت تفرك يديها، بينما كان مسز "بيجلر" ترتعش **وقالت وهي تبكي**:

- عزيزي "جوزيه" .. ولدي العزيز! لم تكن غلطتي، وقد أوضحت للسيدة عدة مرات أنك لن تكون راضياً عنها ولكنها أجبرتني على المجيء إلى هنا..

فصاح "باوندرباي":

- ولماذا تركتها تأتي بك إلى هنا؟ لماذا لم تقيديها أو تحطمي أسنانها؟
- يا ولدي الحبيب.. كانت تنوي استدعاء الشرطة ولم أكن أريد هذا يا "جوزيه"، لقد بررت بوعدي لك، وعشت في هدوء وأصبحت أفتخر بك من بعيد.. كنت أحضر لـ(كوكتاون) مرة أو مرتين في العام.. لكني لم أخبر أحد بأني أمك..!!

كان كل من بالقاعة ينصتون لكل كلمة، بينما كان "باوندرباي" يتحرك من ركن إلى ركن في غضب عنيف ومسز "سبارسيت" غارقة في البكاء..

ثم قال "جرادجريند" موجهاً الكلام لمسز "بيجلر":

- إن ما تقولينه هراء يا سيدتي، فوالدة السيد "باوندرباي" كانت قد ألقت به في الشارع وتركته منذ أن كان طفلاً صغيراً.. كانت في منتهى القسوة معه.. وقد استطاع هو أن يبني نفسه بنفسه!
- أنا كنت أما قاسية؟! أن القيت بابني في الشارع؟!.. سامحك الله يا سيدي.. إن لك خيالاً شريراً!

لم يكن السيد "جرادجريند" يتخيل أي شيء.. لهذا دهش.. هل كان "باوندرباي" يكذب كل هذا الوقت على كل الناس؟!

ثم قال "جرادجريند" بعد برهة:

- حسناَ، ألم يعتني ابنك بنفسه منذ وقت مبكر جداً في حياته؟

فردت عليه مسز "بيجلر" قائلة:

- لا يا سيدي لم يفعل، لم تكن أغنياء .. أعرف.. فقد مات أبوه.. زوجي عندما كان "جوزيه" في الثامنة من عمره وقد عملت وكافحت حتى يتسنى لابني أن يلتحق بالمدرسة.. كنت أعاني ولكني كنت مستمتعة بالمعاناة.. لاني كنت أحبه. ثم .. وجدت عملاً له وقد أخذ يعمل هو الآخر بجد واجتهاد، والآن ها هو قد أصبح رجلاً غنياً من الوجهاء وإني لفخورة به..

واستأنفت مسز "بيجلر" الحديث قائلة:

إنه لم ينسني أبداً – يا سيدي – كان يدفع لي ثلاثين جنيهاً في العام.. تكفيني وتزيد عن حاجتي وما زال لدي (دكان) صغير في القرية وقد وعدته أن أبقى هناك. فقد أراد "جوزيه" ألا أتدخل في حياته وقد حفظت عهدي معه لدرجة إني لم أتحدث إليه طوال عشرين عاماً، وما كنت لاحضر إلى هنا لو لم تحضرني هذه السيدة، ولهذا.. أنت على خطأ يا سيدي! فأنا كنت دائماً أما طيبة لابني وهو سيخبرك بهذا بنفسه!

صفق كل من بالقاعة وحيوا مسز "بيجلر" على هذه الخطبة الطويلة، لم يقل السيد "جرادجريند" شيئاً بينما كان وجه "باوندرباي" محمراً جداً.. كان غاضباً لدرجة بدا معها أنه على وشك الانفجار **ثم حرك ذراعه في الهواء وهو يصيح:**

- إذا كنتم قد استمتعتم جميعاً إلى ما يكفي عن أسراري، فربما.. تتكرمون بالخروج من بيتي.. فلست أنوي إيضاح أو تفسير أي شيء.. كذلك "توم

جرادجريند" سيصاب بخيبة أمل، ولكن يمكن أن أقول لكم شيئاً واحداً.. إن أمي لم تساعد أي إنسان على سرقة مصرفي .. والآن.. أسعد الله مساءكم جميعاً!!

قال "باوندرباي" كلماته الاخيرة وهو يفتح الباب ليخرج الجميع..

وما كادت تمر الساعة إلا وكان كل من في **كوكتاون** قد علم بالحقيقة.. وهي أن "باوندرباي" كذاب لأن له أما رقيقة حنون وهو ليس بالرجل"الذي صنع نفسه بنفسه، إنه ليس إلا وجهاً سميناً.. أحمر .. غاضباً و .. كذاباً! حتى مسز "سبارسيت" بدت وكأنها أكثر أمانة من "باوندرباي" أغنى أغنياء **كوكتاون**.

لم تعد مسز "بيجلر" الآن سراً على أي إنسان وهذا يعني أن فرصة "ستيفن بلاكبول" أصبحت أفضل ولكن "لويزا" و"سيسي" .. و"راشيل" أيضاً.. كن يعانين من مخاوف رهيبة، فنفرض أن "ستيفن بلاكبول" استطاع أن يثبت براءته.. إذن لابد أن شخصاً آخر هو المذنب والدليل – دليل البراءة – سيشير إلى المذنب الحقيقي. وكانت "راشيل" تعتقد أن هذا الشخص –المذنب الحقيقي – قد منع عودة "ستيفن"، كانت تخشى أن يكون شخص ما قد قتل "ستيفن".

أما مخاوف "لويزا" و"سيسي" فكانت ترتبط – سراً – بـ"توم الابن" . ولم تجرؤ أي منهما على الحديث عن أفكارهما. وإن كانت كل منهما تعرف ما يدور في رأس الأخرى، في هذه الأثناء بقى "توم" بالقرب من "باوندرباي" و"ستيفن بلا كبول" لم يعد بعد.

في يوم الاحد، خرجت "سيسي" و"راشيل" من محطة القطار في الريف. كان المكان بين **كوكتاون** ومنزل السيد "باوندرباي" الريفي. كان يوماً جميلاً مشرقاً من أيام الخريف. أخذن تتمشيان عبر الحقول في طريق طويلة مظللة..

كان الريف لا يزال أخضر ناضراً وقد حاولنا أن تتجنبا المباني الخالية السوداء التي كانت تتبع مناجم الفحم القديمة، وفي الظهيرة جلستا تستريحان..

وقالت "سيسي":

- إن المكان هادئ جداً هنا، فالناس لم يعودوا يستعملون هذه الطرق الآن.

وبينما هي تقول هذا لاحظت سياجاً قديماً محطماً على بعد عدة خطوات منها فنهضت لتلقي نظرة عليه **وهي تقول:**

- إن شخصاً ما قد كسر هذا السياج حديثاً.. أوه "راشيل" تعالى! هناك قبعة ملقاة على الحشائش!

ارتعدت "راشيل" عندما التقطت القبعة من الأرض ، نظرت داخلها فرأت الاسم "ستيفن بلاكبول"!

فقالت في ذهول خالطه الحزن:

- آه.. رجلي المسكين! أيها الرجل المسكين! لقد قتل! لابد أن يرقد في مكان ما قريب من هنا يا "سيسي".

ونظرت حولهما دون أن تتحركا، لم يستطيعا رؤية شيء آخر يخص "ستيفن"، **فقالت "سيسي":**

- سوف أسير للداخل قليلاً.

ولم تكد تتحرك "سيسي" للأمام حتى صرخت "راشيل" صرخة عالية وأمسكت "سيسي" بكلتا يديها وجذبتها للخلف.. ف؟أمامها كانت توجد حفرة عميقة سوداء تكاد تكون مختفية بين الأعشاب الكثيفة.. الطويلة!

وأخذت "راشيل" تبكي وتقول في ذهول:

- آه يا ربي .. إنه تحت .. هناك! تحت!

وأخذت تبكي وتصرخ ولم تستطع "سيسي" أن تفعل شيئاً لتوقفها.. وأخيراً **قالت "سيسي":**

- عزيزتي "راشيل" يجب علينا أن نفكر في "ستيفن"، فإذا كان هنا في هذه الحفرة.. فربما كان لا يزال حياً ويجب أن نحصل على مساعدة بسرعة.
- نعم .. نعم! تحصل على المساعدة!

فتوجهت "سيسي" إلى حافة الحفرة وأخذت تنادي:

- "ستيفن" .. "ستيفن"!!

نادت عشرين مرة ولكن .. لا مجيب!

ثم قالت:

- لا يجب أن نضيع أي لحظة أخرى.. يا "راشيل" .. يجب أن تتحرك في اتجاهات مختلفة لنبحث عن من يساعدنا، أخبربي كل من تقابليه بما حدث. يجب أن يحضروا معهم حبالاً طويلة يجب أن نرسل رسالة لـ"**كوكتاون**" كما أننا بحاجة لطبيب، أسرعي الآن يا "راشيل"! فكري في "ستيفن".. عودي أنت من نفس الطريق وسأسير أنا للأمام..

كانت الساعة الخامسة مساء عندما تم إخراج "ستيفن" – المكسور جسمه– من الحفرة، كان لا يزال حياً.. ولكن .. فقط لا يزال حياً.

في هذا الوقت وصل السيد "جرادجريند" و"لويزا" وأيضاً وصل السيد "باوندرباي" وبصحبته "الجرو" ومعهما الطبيب، أعطى الطبيب لـ"ستيفن" بعض الأدوية القوية وما هي إلا بضع دقائق حتى كان "ستيفن" قادراً على الكلام.

كان يسير من مكان عمله في طريق **كوكتاون** متوجهاً إلى بيت السيد "باوندرباي" الريفي .. إنه لم يسرق المصرف ولم يستطع أن يصبر حتى يثبت هذا. ولذلك عبر هذه الضاحية الخطرة في الليل فسقط في هذه الحفرة.

انحنت عليه "راشيل" وقالت:

- إنك تعاني ألماً عظيماً يا رجلي الحبيب... أنه لأمر في غاية السوء؟
- لم يعد هكذا الآن يا "راشيل" .. كان رهيباً.. ولكنه لم يعد الآن، إنها لخبطة.. كل شيء لخبطة.. انظري إلى السماء يا "راشيل".. هل ترين هذه النجمة؟

نظر الجميع نحو السماء وشاهدوا نجمة من نجوم السماء اللامعة، واستأنف "ستيفن" الكلام:

- كنت انظر إليها من مكاني في قاع الحفرة يا "راشيل" .. وكنت أحس إنها تخبرني بالحقيقة. عندما تسلمت رسالتك يا "راشيل" تذكرت السيدة الشابة وأخاها..

هنا تحركت "لويزا" للأمام ومالت برأسها بالقرب من "ستيفن" الذي استطرد:

- وظننت إنهما دبرا الأمر معاً .. كنت أهرول لاوجه إليهما الاتهام عندما سقطت في هذه الحفرة، ثم .. بالنظر طويلاً إلى النجمة.. رأيت الأمور أكثر وضوحاً.

ثم تحول إلى "لويزا" وقال:

- لقد فهتم الآن أيتها السيدة.. جزاك الله كل خير.. هلا تكرمت وحملت مني رسالة لأبيك؟

كانت "لويزا" ترتعش وهي تجيبه قائلة:

- إنه هنا!

ثم نادت أباها.. فجاء السيد "جرادجريند"، **فقال له "ستيفن"**:

- سيدي، ليس لدي الكثير من الوقت.. يجب عليك أن تثبت أني رجل شريف.. إني رجل شريف.. إنني أترك سمعتي بين يديك.

فأحس السيد "جرادجريند" بالقلق **وسأله قائلاً**:

- وكيف أستطيع أن أفعل هذا؟
- ابنك سيخبرك يا سيدي، إنني لا أتهم أي إنسان، ولا أقول كلمة واحدة ضد إنسان، ولكني كنا قد تحادثنا ذات ليلة. كان يعرف لماذا كنت انتظر كل مساء أمام البنك، إنه يعرف وأرجو أن يحكي لك.

في هذه اللحظة تركت "سيسي" المجموعة الصغيرة المتحلقة حول "ستيفن" وذهبت إلى حيث كان يقف السيد "باوندرباي" و"توم الابن" تحت الظل وهمست بشيء ما في أذن "توم"!

بعد هذا صنع الرجال الذي أنقذوا "ستيفن" سريراً من أجله ولفه الطبيب بالأربطة والقطن وأرقده فوق المحفة – التي صنعها الرجال – ثم حمله أربعة رجال وساروا به عبر الطريق.. وبينما هم سائرون به قال "ستيفن" موجهاً حديثه لـ"راشيل":

- "راشيل" .. حبيبتي .. امسكي بيدي .. يمكننا الليلة أن نسير معاً بدون خجل.
- سوف احتضنها يا "ستيفن" وسأبقى بجانبك!
- وهبك الله حبه! من فضلكم هل يتكرم أحدكم بوضع الغطاء على وجهي..؟!

وحمله الرجال بلطف بالغ .. لم يتكلم "ستيفن" ثانية.. وقبل أن يصل الموكب إلى محطة القطار .. كانت يده قد أصبحت.. باردة تماماً..

ولم يكن "توم الابن" في الموكب!!

- 21 -

لم يشاهد "توم جرادجريند الابن" في **كوكتاون** ثانية، ففي مساء يوم الأحد ذاك.. أخذ "توم" بنصيحة "سيسي" – التي همست بها في أذنه – وسافر في الحال إلى **ليفربول** على بعد ثلاثين ميلاً من **كوكتاون**.. وهناك عثر على سيرك "سليري" رسالة من "سيسي".

وبناء عليها لم يوجه السيد "سليري" أية أسئلة "لتوم" فقط قال بشهامة:

- لقد كان السيد "جرادجريند" كريما مع "سيسي" ولهذا .. فأنا على استعداد لتقديم العون لابنه.

وهكذا أخذ "توم" زي مهرج ولون السيد "سليري" وجهه بالألوان البيضاء والحمراء والسوداء، وأصبح على "توم" أن يعاون المهرجين في عملهم.

وبعد يومين وصل السيد "جرادجريند" وبصحبته "لويزا" و"سيسي" إلى السيرك وشرحوا إلى خطتهم للسيد "سليري" .. يجب أن يهرب "توم" إلى **أمريكا**، وثمة سفينة ستغادر **ليفربول** في هذه الليلة ووافق السيد "سليري" على هذه الخطة ثم أحضر "توم" إلى داخل الخيمة وتركه مع عائلته وحدهم.

دفن "جرادجريند" وجهه بين يديه حينما رأى ابنه في زي المهرج. واجهش بالبكاء **وأخذ يقول:**

- لماذا؟!.. لماذا؟! فعلت هذا؟

سأله "توم" بغباء:

- فعلت ماذا؟
- لماذا سرقت المصرف.. إن هذا الخبر قد حدني من الإعياء.
- كان يجب عليك أن تتوقع هذا، لقد جعلتني أعمل في مصرف، وعندما يعمل خمسون رجلاً في مصرف فلابد أن أحدهم سيسرق أمواله.. هذه واحدة من أشهر حقائق الواقع التي علمتها لنا.

لقد رددتها على سمعي مئات المرات.. كنت دائماً تجد الراحة مع حقائق الواقع .. حسناً.. تمتع بهذه الحقيقة إذن!

أحنى السيد "جرادجريند" رأسه وقال:

- يجب أن ترحل عن **انجلترا** الليلة..

وأعطي لـ"توم" ظرفاً مغلقاً **وأكمل حديثه:**

- ها هي التذكرة وبعض النقود، أرجو أن تفعل شيئاً طيباً في حياتك القادمة، لقد كانت جريمتك مروعة وكانت لها نتائج مروعة، ولكن .. هات يدك يا ولدي المسكين .. إنني أدعو الله أن يسامحك كما سامحتك.

كان "توم" يبكي ففتحت "لويزا" له ذراعيها لتحتضنه ولكنه صرخ قائلاً:

- لا!.. لا!.. لا أريد أن ألمسك! كل هذه كان بسببك، فأنت لم تهتمي بأمري أبداً!

فانفجرت "لويزا" في البكاء.. وفي هذه اللحظة دخل "سليري" وقال:

- يجب أن نسرع فأمامنا ستة أميال لتصل إلى المرفأ والسفينة لن تنتظر من أجلنا..

وخرج الجميع ليتوجهوا إلى المرفأ ولكن .. فجأة رجل من خلف الخيمة.. إنه "بيتزر"!

كانت ترتسم على وجهه ابتسامة خبيثة وقال:

- لقد تبعتكم من **كوكتاون** إلى هنا. واستمعت إلى حديثكم، اعتذر لإفساد خطتكم.. فالسيد "توم الابن" يجب أن يأتي معي، كنت دائما أعتقد أنه هو الذي سرق المصرف والآن تأكدت أن ظني كان في محله.

أخذ السيد "جرادجريند" يهتز ويتوسل إلى "بيتزر":

- "بيتزر" .. أليس لديك قلب ينبض بالدفء؟

- أجل يا سيدي إن البشر الأحياء كلهم لهم قلب ينبض بالدفء.. هذه حقيقة معروفة جداً فحرارة الجسم..

فقاطعه السيد "جرادجريند" صائحاً:

- أجل.. أجل يا "بيتزر" ولكن .. ألا تشعر بالرثاء لحالنا؟ هل تفكر من أجلنا أم من أجل بعض المكافأة.
- رثاء!.. لا .. فالرجال العقلاء لا يهتمون بغير الحقائق المادية يا سيدي، إنني لا أكره السيد "توم" ولكني سأحصل على مكانه بالمصرف بعد أن يقبض عليه.
- هل يمكنني أن أ؟عرض عليك شيئاً ؟ كم من المال؟..
- أعتذر لقطع حديثك يا سيدي، إذا أنا قبلت المال.. فسأكون شريكاً في الجرم، أفضل أن أحصل على مكان السيد "توم الابن" في المصرف..

كان السيد "سليري" يستمع للحديث بفم مفتوح من الدهشة، ثم ابتسم خفية لـ"سيسي" **وقال:**

- حسناً يا سيدي، إن هذا الأمر لجد خطير .. إنني لم أكن أعرف أن ابنك قد سرق مصرفاً!

أما الآن فأنا أوافق على هذا الشاب المهذب، إنني أسف لهذا ولكن ابنك يجب أن يعود إلى **كوكتاون**.

ثم توجه السيد "سليري" بالكلام إلى "بيتزر" قائلاً:

- إنني لا أستطيع تقديم الكثير يا سيدي، ولكن حصاني وعربتي جاهزين وسوف أوصلك والسيد "توم الابن" إلى محطة القطار وسوف آمر بتجهيز عربة للسيدتين ومعهما السيد "جرادجريند" وسوف يتبعوننا.

فقال "بيتزر":

- هذا حسن يا سيدي، لم أكن أعرف أن رجال السيرك يلتزمون بالقانون!
- أوه! يا سيدي! إننا بالتأكيد نطيع بالقانون، ولكن، لا أظنك تمانع في أن اصطحب معي كلبي، فالحصان لن يذهب إلى أي مكان بدون الكلب ولهذا.. يجب أن تأخذه معنا.

فقال "بيتزر":

- نعم، يمكنه أن يساعد في حراسة هذا اللص الكذاب.

ووصلوا إلى العربة فصعد "توم" و"بيتزر" والكلب، وقال "سليري" لـ"بيتزر":

- اسمح لي بدقيقة يا سيدي، سآخذ السيدة "جرادجريند" والسيدتين إلى خيمتي حيث ينتظران العربة.

وفي الخيمة شرح "سليري" بسرعة ما ينوي أن يفعله:

- يمكنك أن تعتمد عليَّ يا سيد "جرادجريند"، فقد دربت هذه الحيوانات جيداً بنفسي، فالحصان لن يذهب إلى المحطة فسيصاب بالجنون في مكان ما وسوف أدعي أنني لا أستطيعه السيطرة عليه وعندما تقترب من المرفأ سيقذف بابنك في العربة وسيمسك الكلب "بيتزر" من بنطلونه وبالطبع لن أستطيع تقديم أي مساعدة وسيكون ابنك على ظهر السفينة قبل أن تبخر.

وبعد هذا أحضر السيد "سليري" ثياباً مناسبة لـ"توم الابن" وبعض الزيت ليغسل عن وجهه الأصباغ كان الظلام قد خيم تماماً على المدينة عندما بدأ "سليري" يقود العربة..

كان الجميع – السيد "جرادجريند" و"لويزا" و"سيسي" - يشعرون بالامتنان والشكر لـ"سليري" وقد قضوا تلك الليلة في فندق.

عاد السيد "سليري" ومعه كلبه في الرابعة صباح اليوم التالي، في هذا الوقت كان "توم الابن" في عرض البحر في طريقه إلى أمريكا.. بينما كان "بيتزر" يسير في طريقه إلى **كوكتاون** .. وحيداً!

أقام السيد "جرادجريند" حفلاً في الفندق لكل أفراد السيرك كانت سعادة "سيسي" عميقة لرؤية أصدقائها القدامى.

أثناء الغداء همس السيد "سليري" في أذن السيد "جرادجريند" قائلاً:

- لقد مات والد "سيسي" يا سيدي، لا أعرف متى مات؟ ولا أين؟ ولكني متأكد أنه مات.
- وكيف عرفت؟
- أقول لك يا سيدي. كان لدي والدها كلب يدعي (ميري ليجز) هذا الكلب عاد إلى السيرك منذ أربعة عشر شهراً. كان في حالة سيئة مكفوف البصر .. لابد أنه مشي مسافة طويلة، حسناً، لقد أخذ يشم كل الأطفال الموجودين بالسيرك .. كان يبحث عن طفلة يعرفها، فلما لم يجدها جاء إلى وبعد خمسة دقائق أخرى .. مات .. والآن يا سيدي، هذا الكلب ما كان ليترك "جوب" لو أن جوب كان حياً.

فقال "جرادجريند":

- أعتقد أن هذا غير صحيح، فـ"سيسي" ما زالت تحب أباها وتأمل في عودته، أنها لم تشك لحظة في مدى حبه لها.
- دعها تحيا مع الأمل يا سيدي، فسيجعل حياتها أسعد كثيراً!

والآن.. ترى ماذا حدث لبقية أبطال القصة؟

وإذا كان في مقدورنا أن ننفذ ببصرنا خلال حجب الغيب لنطلع على المستقبل، فماذا يمكننا أن نرى؟

السيد "باوندرباي": ظل السيد "باوندرباي" غاضباً من مسز "سبارسيت"، وهي نفسها بدأت تمله، ولم يمض أسبوعان حتى أرسلها إلى عائلتها الغنية، وقبل أن ترحل **قالت له:**

- سيدي يجب أن تعمل في سيرك، فإنك حقاً مهرج! ولهذا فالسيرك هو مكانك الصحيح!

وبينما أصبحت مسز "سبارسيت" أكبر سناً .. أصبح السيد "باوندرباي" أكثر غضباً، وفي أحد الأيام بعد مرور خمس سنوات وبينما هو يمشي في طريقه إلى البنك .. انفجر شيء ما في داخله فسقط ميتاً في الشارع. حقاً أنه لم ينهض بنفسه من الشارع، ولكنه للحقيقة أيضاً.. مات فيه!

السيد جرادجريند: تغير السيد "جرادجريند"، وأخذ الحب والأمل مكان الوقائع والأرقام في حياته كما أن أطفاله الثلاثة الصغار قد نعموا بحياة أسعد من "لويزا" و"توم" وكتب السيد "جرادجريند" خطاباً عاماً أثبت فيه براءة "ستيفن بلا كبول" وبين فيه أن ابنه "توم" هو المذنب الحقيقي..

والآن ترى ماذا خبأ المستقبل لـ"لويزا"؟

أصبحت حياتها لطيفة.. هادئة وتلقت رسالة من "توم"، طلب منها أن تسامحه وقال لها في رسالته:

"إنني لا أضحي بكل كنوز الدنيا من أجل أن أمتع عيني برؤيتك ثانية".

لكنه لم يرها، ولم تره ثانية، فقد مات "توم" محموماً في المستشفى!

هل تزوجت "لويزا" ثانية؟ هل قدر لها أن تنجب أطفال؟

الإجابة هي ...لا.

إذن هل كان لها أصدقاء؟

الإجابة هي .. نعم.. فقد كانت هناك "راشيل" التي عملت في مصنع النسيج بقية عمرها كانت طيبة وحنون، كما أنها أصبحت مع مر الأيام أكثر سعادة فهي المرأة الوحيدة في **كوكتاون** التي وثقت وأشفقت على زوجة "ستيفن بلاكبول".

وكانت هناك أيضاً "سيسي" .. وأطفال "سيسي" السعداء بالقرب منها، كان بيت "سيسي" مكاناً رائعاً حقاً .. تملؤها الزهور وتزين جدرانه اللوحات الجميلة ومكتبته تحوي قصصاً رائعة .. الجمال والخيال في كل مكان .. على الأرضيات ومعلق على الجدران.. الحب والسعادة والخيالات الجميلة..

حتى السيد "جراد جريند" حاول أن يستمتع بكل هذا!

و"لويزا".. "لويزا" عشقت كل هذه الأشياء..